القسم الاول

تاريخ لبنان السياسي

منذ الفينيقيين الى السنة الستين

obeikandl.com

ابواب القسم الاول

الباب الاول : لبنان الفينيقي

« الثاني : لبنان على عهد الرومان

« الثالث : « « المردة والعرب

« الرابع : « « الصيليبين

« الخامس : « « المعنيين

« السادس : « « الشهابيين

« السابع : « « القائم مقاميتين

obeikandi.com

الباب الاول

لبنان الفينيقي [١]

لكل امةٍ ولعٌ بالرجوع الى اصولها والافتخار بأنسابها استقاء لحاضرها من منهل ماضيها : فايطاليا تعتزّ انها وريثة رومة العظمى وما فيها من همة وعلم ومجد .. ويفتخر اليونان انهم سلالة اولئك الاقطاب من رجال الهلادة وشعرائها وفلاسفتها امثال بريكليس وصوفوكل وسقراط .. والعالم المتمدن يُقرُّ ايطاليا واليونان على فخارهم ويحترم في الاحفاد عظمة الجدود حتى ان اوربا ساعدت ايطاليا واليونان على نيل الاستقلال استعادةً لذلك المجد واقراراً بذلك الفضل ..

فاذا فاخر شعبٌ باصوله واستمد الفضل من كريم أنسابه فأحرِ بلبنان ان يذكر ويُذكرّ انهُ مهد الحضارة في

---

١ راجع : مسبرو تاريخ شعوب الشرق القديم
الدبس : (سيادة المطران يوسف) تاريخ سوريا ج ١

العالم : وَلَدَتْ في سفوحه واينعت على شواطئه ومنها حملها « الفينيقيون » الى اقاصي المسكونة

ولئن كان على اوربا واجب لايطاليا .واليونان فعليها أجلُّ منه لبلاد هي معلمة روما وام اليونانية

* * *

كانت « فينيقيا » القديمة قائمة حيث يمتد اليوم لبنان بحدوده الطبيعية على وجه التقريب : من عكا جنوباً الى ارواد شمالاً

ان فينيقيا هي التي علمت الامم ومدّنت الشعوب وما اليونان والرومان الاّ عيال عليها علماً وادباً

فالفينيقيون اخترعوا الكتابة والملاحة وكثيراً من الصناعات الفاخرة ورادوا العالم للتجارة بحراً وبراً .. ولقد عرف العلم الحديث فضلهم فوفاهم حقهم من الثناء وعرفان الجميل :

اخترع الفينيقيون الكتابة فوضعوا للغتهم ٢٢ حرفاً هجائياً تمكنوا ان يكتبوا بها ماشاؤوا وعنهم اخذت سائر اللغات حروفها حتى ان العلماء لم يجدوا حتى اليوم حروف هجاء سابقة لحروف الفينيقيين . وكان اختراعهم هذا قبل عصر موسى

وهم اخترعوا الملاحة وذللوا البحر لمقذافهم وفي ذلك يقول مسبرو: « بينا بعضٌ من امراء البحر الفينيقيين يجرون الى اكتشاف البون توكسون Pont-Euxin (البحر الاسود) كان البعض الآخر يسير الى اكريت ويكتشف اراضيها »[1] وقد مدّوا تجارتهم في سائر انحاء المعمور شرقاً وغرباً

ولهم يعود الفضل باختراع كثيرٍ من الصناعات منها البرفير أي الارجوان وكان يستعمله ملوك اشور وآرام وبابل وفارس ومدين في ملابسهم كما جاء في نبوآت حزقيال وارميا ودانيال . ومنها اختراعهم للزجاج الشفاف وفي متاحف اوربا كثيرٌ من مصنوعات الفينيقيين الزجاجية وهي تشهد

---

١ مسبرو: تاريخ شعوب الشرق القديم ص ٢٩٤

لهم بطول الباع والمهارة بهذه الصناعة

وكان لهم السبق ايضاً في صنع الآنية الخزفية وكانوا يشحنون منها الشيء الكثير مثل الجرار والقدور والكؤوس والصحاف فتوزع في الاقطار حتى على شواطىء الاتلنتيك وجزر بريطانيا

وكان لهم مهارة خاصة في ما يعمل من المتاع بالنحاس الاصفر من آنية وزينة وقد ذكرت لهم ذلك التوراة فأرسل سليمان يطلب من حيرام عمالاً منهم لنقش الهيكل قال: «فالآن أرسلْ لي رجلاً حاذقاً بعمل الذهب والفضة والنحاس والحديد والقرمز والسمنجوني ماهراً في النقش مع الحذّاق الذين عندي في يهوذا وفي ارشليم الذين أعدّهم داود أبي»[١]

وكان الفينيقيون ذوي همة بعيدة حملتهم الى مختلف الأمصار وشاسع الاقطار فاستعمروا ماشاؤوا من الارض شرقاً وغرباً وابقوا في كل بلد نزلوه آثاراً عنهم حتى اليوم

---

١ سفر اخبار الايام الثاني ف ٢ ع ٧
سفر الملوك الثالث ف ٧ ع ١٣ الى ٤٦

وقد ذكر العلماء اخصهم مسبرو شيئاً كثيراً عن احوال الفينيقيين ومستعمراتهم يلخص فيما يأتي :

ركب الفينيقيون البحر من عرقا وجبيل وارواد وبيروت والخلده وصيدا وصور فقذفت بهم مطامح نفس شماء الى بحر ايجه والارخبيل فنزلوا جزر سبوراد وسيكلاد وديلوس «حيث وَلدت ديانا وابولون» وساموترا «حيث اسرار الهة كبير» [١] ثم جازوا الجزر الى «الالسبون» او مضيق الدردنيل واحتلوا فيه مدناً حصنوها كلمبساك ثم ساروا الى البوسفور والبحر الاسود ومنه الى جبل قاف حيث اخذوا المعادن الثمينة اخصها الذهب وسيروا سفنهم الغازية على شطوط «الابير» او البانيا ورادوا ايطاليا وصقلية ولم تعصَ عليهم افريقيا فنزلوا مصرَ واقاموا فيها لهم مستودعات اخصها ممفيس ثم ساروا الى تونس حيث بنوا مدينة كمباه وحيث بنت اليسار الفينيقية مدينة قرطاجة سنة ٨٦٠ ق. م.

ولم يكتفوا بتذليل البحر بل رادوا البرَّ فساروا الى بلاد

---

١ عن الميتولوجيا

العرب والكلدان وارمينيا وطرقوا كل طرق التجارة في الشرق الاقصى كالهند وتركستان.

وسار منهم بعض الى اسبانيا فعمّروا «قادس» وبنوا «ملاكا» «وسكس» وابدار ومدّوا فروعهم الى سفح جبال «البيرينه». وهكذا ضرب الفينيقيون في مشارق الارض ومغاربها فلم تقف بهم الهمة حتى مدّوا تجارتهم في كل انحاء العالم المعروف يومئذٍ وقد ابقوا في كل تلك الاصقاع آثاراً عنهم حتى اليوم تروي للخلف عن توقد ذكائهم ومضاء عزيمتهم وكمال رقيّهم.

وقد اثبت علماء اليوم ان مهد الحضارة والعلوم والمعارف هو فينيقيا[1] لا اليونان، وان فينيقيا احق بتلك الكرامة الجلى التي لليونانية في العالم، غير متنقصين فضل اليونانية في شيء.

فقد كتب المسيو بوجولا في «مراسلات الشرق» ماملخصه:

«قد يمكن ان يكون الفينيقيون اخذوا عن الهنود والفرس والبابليين بعض المعارف الاولى وبعض التقليدات النافعة لكن ما لم

---

١ مسبرو ص ٢٧٩ ومايليها والدبس عد ١٠٦ ومايليه

يخترعوه قد كملوه فقد اخذوا شرارة فصيروا منها شمساً والحق يقال ان هذا الشعب جاد علينا باكثر المنافع . فمصر القديمة جعلت حكمتها وعلومها اسراراً فكانت تحجب مصباحها لئلاّ ينبعث نورهُ لارض سواها واما فينيقية فلم تكن لتألو جهداً في تسطيح انوار معارفها في كل صوب فتتراءى لي مصر في اعصرها الخالية بهيئة كاهن لا ينطق بشيء بل يخبيء نوره المقدس في اعمق خفايا هيكلهِ واما فينيقيا فأراها بهيئة اولئك الآلهة القدماء الذين كانوا يقلون على رؤوسهم منارةً في وسط البحور . وأخص ما يحقّ لفينيقيا الفخار بهِ اختراع الملاحة واختراع الكتابة . »

وللمسيو لنرمان في مثل ذلك قوله :

« ولدت الحضارة في مصر واشور ولكن كان الفينيقيون دُعاتها ورسلها فلا تجد بلداً من جزر اليونان حتى بوغاز جبل طارق الاّ ورأيت فيه اثار تعليمهم وما كان لاسفارهم فيه من بثّ مبادي التمدن . فقد جعل نقودهم ونشاطهم بلادَ اليونان وايطاليا وفرنسا واسبانيا تغادر حالتها الاولى البربرية وتصبح اسيوية الى ان أحرزت بنفسها النجاح الذي رقاها الفينيقيون اول درجاتهِ . » [1]

---

١ الدبس : تاريخ سوريا ج ١ عد ١٠٩ و ١٣٥

وللمسيو جان يانوسكي في كتابه « سوريا القديمة » ما ترجمته ملخصاً :

« ان الفينيقيين كانوا محور التجارة ومستودع خيرات العالم ومثمناته من الهند والصين وسيبارية الى شواطىء بحر قزوين واسيا الوسطى وبلاد العربية . ولم تبعد على همة بحّارتهم الأباسل مجاهل افريقيا وشواطىء اسبانيا وبلاد الغاله (فرنسا) وايطاليا واليونان .

ولم يكن على سطح البحر المتوسط مزاحم للفينيقيين فبلغوا ما بلغوا من القوة والعظمة حتى انه لم يكن سبيل للاتصال بين اسيا واوربا وافريقيا الا بواسطة سفنهم . » [١]

وللمسيو جبريال شارم في « رحلته الى سوريا » ما حكايته

« ان الفضل في ايجاد تلك الثورة الادبية التي غيرت وجه العالم فاقامت ، على اطلال ذلك التمدن الحقير الذي كان مبنياً في الشرق على قواعد الانانية ومبادىء الاوتوقراطية والروح العسكرية ، تمدناً آخر اجلّ واسمى فاتحا باب الرقي على مصراعيه للتجارة العامة وللمبادىء الحرة ، انما مرجعه الى فينيقيا . فهي صاحبة الفضل بايجاد

---

١ جان يانوسكي : تاريخ سوريا القديمة ف ٩ ص ١٠٦ ومايليها

هذا التمدن الرحب الذي منه تكون الغرب الحالي.

ذلك هو الفضل الاكبر الذي لفينيقيا على العالم وقد جهل العالم فضلها ردحاً من الدهر وهو ما يجعل لتلك الأمة الكريمة المقام الاول بين الشعوب التي كان لها تأثير قاطع في تكييف الهيئة الاجتماعية

انها لم تخترع المدهشات مثل غيرها من سابقات الامم انما هي اوحت لهنّ مبادىء الاختراع وقواعد الاستنباط: فما لم تعمله هي عملهُ غيرها بفضل انوارها وبواسطة تعاليمها وقد لا يكون اضاء مصباح اليونانية لولا شعلة تلك الانوار والتعاليم.

انّ ذلك الشعب الذي ظلّ فضله مجهولاً دهراً طويلاً ثم ظهر اخيراً للعلم الحديث فملأ تاريخه على قصرِ ما كان من الفراغ الغريب بين الشرق القديم والغرب الحديث، إن هو الاّ تلك الامة الصغيرة الفينيقية التي يرجع اليها الفضل وينتهي الشرف في انها كانت همزة الوصل بين ذينك العالمين.

وبينا هي تمتدّ من الجنوب الى جبل الكرمل ويحفظها من جهة الغرب البحر المتوسط، كان لبنان من جهة الشرق، يدفع عنها غزوات الفاتحين الاجانب، تجلل قمه احراج من « الارز » واسعة الاطراف.

وقد ملك الفينيقيون كل السبل التي كانت بين الهند وبلاد الكلدان والعربية وبلاد القوقاس وبين الغرب.

ولما نزلوا في بلاد اليونان وجدوهم وهم اقرب الى العصابات المتوحشة

منهم الى الشعوب المتمدنة فعلموهم اللغات والصناعة والكتابة والزراعة وفنّ الحساب وقد تعرّف اليونانُ على يدهم الى كثير من الاختراعات التي نشأت في الشرق ثم هذّبها وحسنها ذكاء الفينيقيين بل نبوغهم في وضع الاختراع قيد الاستعمال . وقد اخذ اليونان عن الفينيقيين كل الكلمات الدالة على تلك الاختراعات والحاجيات .

وخلاصة القول ان اليونان مديونون بحضارتهم للفينيقيين وان ما لتلك الحضارة والعلوم من فضل على البشرية يرجع اصلهُ الى فينيقيا لان اليونان ما كانوا الا تلاميذاً لهم. » [١]

وقد كتب المسيو ارنست كورسيوس في تاريخه عن اليونان فصلاً شائقاً عن تفوق الفينيقيين وعن اخذ اليونان عنهم جاءَ فيه

« لا يُنكر على اليونان انهم توصلوا الى اخذ الحضارة عن شعب أرقى منهم (يريد الفينيقيين) وانهم تمكنوا بذكائهم ان يسرقوا منه سرَّ تفوقه » . [٢]

* * *

وقد كانت جبال لبنان في ذلك العهد معقلَ فينيقيا الساحلية وحصنها الحصين فقد صان لبنان فينيقيا وحمى

---

١ جبريال شارم : « رحلة الى سوريا » ص ٦٩ وما بليها

٢ ارنست كورسيوس : « تاريخ اليونان » ج ١ ص ٤٩

استقلالها فكان له فضلٌ كبير في ما بلغت اليه من الجاه والعظمة

من اجل ذلك تجسمّ عزّ فينيقيا وامجادها في لبنان وكأنّ «العناية» اختارته من قديم الدهر ليكون في الشرق ملجأ أميناً للنصرانية وموئلاً حصيناً للفازعين اليه فأنشدت مجدَهُ الكتبُ وقدّست أرزَه اناشيدُ الانبياء حتى باتت للبنان كرامة القدسيات ولارزهِ حرمةُ الاسرار يدلك على ما بلغهُ من المقام والاجلال ان «الكنيسة» حين شاءت ان تحصر آيَ المجد في السيدة العذراء لم تجد تعبيراً أوفى من تخصيصها بالآية «قد اوتيت مجد لبنان»[1]

ولئن انحصرت امجادُ فينيقيا في لبنان فقد تجسمت امجادُ لبنان في ارزه الخالد فاطلّ من شاهق تلك القمم على الاجيال تتابع والقرون تتخالف، فقامت على اقدامه دول واندثرت دول: فرأى الاشوريين والكلدان والفرس واليونان والرومان يتطاحنون ويتفانون وهو يشرف على

---

١ اشعيا ف ٣٥ عد ٢

السهل من عالي بواسقه اشراف النسر من شاهق وكره لاتصل الى سمعه صلصلةُ السيوف ولا تنال من شماء عزّته شرّةُ الفاتحين.

نظرت ملوك التوراة وشعراؤها الى جلال لبنان وجماله فراعَ جلاله الملوك وهاج جمالهُ الشعراء فخصوا لبنان وارزَه بآياتٍ ساحرات خلدت ذينك الجلالَ والجمالَ دَلالاً على الملوك واعجازاً للشعراء

« قال الحكيم في معجزهِ « نشيد الاناشيد » :

« الملك سليمان صنع لنفسه تختاً من خشب لبنان »

« هلمي معي من لبنان ايتها العروس ، معي من لبنان ، انظري من راس امانة من راس سنير وحرمون من مرابض الاسود من جبال النمور »

« عينُ جناتٍ وبئر مياهٍ حيةٍ وأنهارٌ من لبنان »

« عنقك كبرج من العاج وعيناك كبركتي حشبون عند باب بنت الجماعة وأنفك كبرج لبنان الناظر الى دمشق »

« ان كانت سوراً بنينا عليه صرحاً من فضة وان كانت

مصراعاً شددناه بألواحٍ من أرز[1]

وقال الملك داود «في مزاميره»:

«الصدّيق كالنخل يزهر ومثل ارز لبنان ينمي»

«تروى اشجارُ الرب ارزُ لبنان الذي غرسها»

«هناك تعشش العصافير واللقْلق بيت في السرو»

«سبحي الربَّ من الارض ايتها التنانين وجميع الغمار الجبالُ وجميعَ التلال. الشجرُ المثمر وجميعَ الارز»

وقال اشعيا: «قد قرعتَ الرب على لسان عبيدك وقلتَ بكثرة مراكبي صعدتُ الى قمم الجبال واواخر لبنان قاطعاً ارفعَ ارزه وخيارَ سروه وبالغا الى علائه الاقصى والى غابة كرملهِ»

وقال هوشع: «واكون لاسرائيل كالندى فيزهر

---

١ نشيد الاناشيد ف ٣ عد ٩ وف ٤ عد ٨ و ١٥ وف ٧ ع ٤ وف ٨ ع ٩

مزامير داود: ف ٩١ عد ١٣ وف ١٠٣ عد ١٦ و ١٧ وف ١٤٨ عد ٧ و ٩

نبوءة اشعيا: ف ٣٧ عد ٢٤

سفر هوشع: ف ١٤ عد ٦ و ٧ و ٨

كالسوسن ويمدّ عروقهُ كلبنان وتنتشر فروعهُ ويكون بهاؤهُ كالزيتون ورائحته كلبنان فيرجع الساكنون في ظلهِ ويحيون بالحنطة ويزهرون كالكرم ويكون ذكره كخمر لبنان »

وقد وصف حزقيال ارز لبنان بما يملأُ النفس مهزّةً قال : « هوذا اشور ارزةٌ بلبنان بهيجة الافنان غيياء الظلّ شامخة القوام وقد كانت ناصيتها بارزةً بين اغصان ملتفة . المياهُ عظمتها والغمرُ رَفعها . انهارُها جَرَت من حول مغرسها ومجاريها ارسلتها الى جميع اشجار الصحراء . فلذلك عند نشأتها ارتفع قوامها فوق جميع اشجار الصحراء وكثرت اغصانها وامتدّت فروعها من كثرة المياه . في اغصانها عششت جميع طيور السماء وتحت فروعها وَلدت جميعُ وحوش الصحراء وفي ظلها سكنت جميعُ الامم الكثيرة »[1]

* * *

وقد عظم شأنُ فينيقيا واتسعت املاكها فكانت عظمتها واتساعها سبباً في تقهقرها وسقوطها : سنةُ الطبيعة في الممالك

---

١ حزقيال : ف ٣١ عد ٣ الى ٧

والدول فهكذا تقهقرت اليونان وهكذا سقطت روما ولتلك الاسباب نفسها تضاءلت الدولة العثمانية بعد ان مدّت فروعها في اسيا واوربا وافريقيا :

ففي الجيل التاسع ق. م. دخل « الاشوريون » فينيقيا وافتخر تجلت فلاصر أنه اخذ من خشب الارز واعتز نمرود انه « أخذ نواحي جبل لبنان وذهب نحو بحر فينيقيا الكبير وترنم على اعالي الجبال بتسابيح الالهة العظام » [1]

+

وفي ذلك العهد جلت جماعة من الفينيقيين صحبة «اليسار» بنت الملك فركبوا البحر الى سواحل تونس حيث نزلوا حوالي سنة ٨٦٠ ق. م. وبنوا مدينة سمتها اليسار « قرية حديثا » وهي عند العرب « قرطاجة » تلك التي قدّر لها ان تصبح فيما بعد ضرّةً لرومه ومزاحمة لها على مجدها فتصطلي معها في حروب مشهورة باسم « الحروب البونية » اي الفينيقية وفيها كاد « انيبال القرطجني الفينيقي الاصل » يظفر باكاليل

---

١ الديس ج ١ عد ١٢٠

النصر ويقيم معالم قرطاجة على اطلال روما لولا أن خانهُ الجدّ في آخر امرهِ على ما هو مشهور في تاريخ روما وقرطاجة.[١]

*

وبعد ملوك اشوراتى الكلدان والفرس في الجيل السادس ق. م. فظلّ اللبنانيون يناصبونهم القتال ذوداً عن حريتهم كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً.[٢]

*

وفي منتصف القرن الرابع سنة ٣٥٦ ق. م. ظهر في سماء مقدونيا نجمُ ذلك الفاتح الاكبر فبعث انواره الساطعة في افلاك الممالك شرقاً وغرباً فخسفت لطلعته نيراتها وهوت تلك الاجرام من ابراجها فنال ذو القرنين من بسطة السلطان وسطوة الملك مالم ينله فاتح قبله فاستظلت فينيقيا افياءه فيما أظلت من المدن والبلدان.

---

١ بنيت قرطاجة بالقرب من تونس وقد بلغت خشية الرومانيين من شوكتها وعظمتها ان احدهم «كاتون القديم» جعل لكل خطبة لازمة كان يرددها دائماً: «واني افتكر من جهة اخرى انه لا بد عن سحق قرطاجة»

٢ مسبرو تاريخ شعوب الشرق القديم ص ٢٣٨

الباب الثاني[1]

لبنان على عهد الرومان

لم تدفع شوكة الاسكندر وبطشهُ يدَ الموت عن مهاده الملكي فتقلص ظله الوارف وقضى تاركاً ذلك الملك الواسع لخلفاءٍ ناءت مناكبهم تحت اعبائه فلم يبلغ « الفاتح الروماني » فينيقيا الا وشوكة اليونان قد خضدت فيها فنشر عليها « بومبياس » القائد رايةَ روما سنة ٦٤ ق. م. فقدر لها ان تظلّ خافقة في سمائها الى غرة القرن السابع

لم ينكر الرومان على فينيقيا فضلها ولم يحكموا في لبنان حكم الظافر المكتسح بل قدّروا ذلك الشعب الاثيل قدره

---

١ بوشير : « سوريا على عهد الرومان »
جاستون ماي : مبادىء القانون الروماني

واحترموا مكانته وقد اثبتوا احترامهم له بمظاهر عديدة وشواهد ناطقة ، منها ان الكثيرين من الامبراطرة الرومانيين احسنوا المجاملة لفينيقيا فسكنوا مدن لبنان واهتموا بتخليد ذكرهم فيه فبنوا المدن الجميلة وغالوا في اتقانها فان الامبراطور « ادريان » زار لبنان في القرن الثاني وسكن مدة في جبيل. وشاد «اغسطس قيصر» مدينة بيروت واطلق عليها تيمناً اسم ابنته فدعاها « يوليا السعيدة» وخوّل اهلها حقوق الرومانيين.

وقد انجبَ لبنان الفينيقي كتاباً وعلماء كانوا موضوع اعجاب العالم الروماني واجلاله :

منهم « فيلون الجبيلي » ولد في جبيل ، حوالي سنة ٧٠ للمسيح وعاصر الامبراطور ادريان في القرن الثاني ، وله مؤلفات عديدة في مواضيع مختلفة منها تاريخ الامبراطور ادريان وتاريخ فينيقيا ومجموعة عن المدن الكبرى والرجال العظام الذين خرجوا منها . وما بقي من تلك المؤلفات يشهد لصاحبها بالعلم والبلاغة .

واكبر علماء نجبوا في القانون بين الرومان كانوا من

الفينيقيين اخصمهم « او ليبان » القانوني وهو من ضواحي صور ولدَ حوالي سنة ١٧٠ للمسيح وكان استاذاً للحقوق في كلية بيروت ثم أصبح مستشاراً خاصاً للامبراطور الكسندر سافروس

وقد فاق الجميع علماً وادباً « بابينيان » القانوني الطائر الصيت وهو من واضعي القوانين الرومانية التي عنها أخذ العالم باسره وقد كان هو ايضاً استاذاً للحقوق في كلية بيروت ثم مستشاراً خاصاً وصديقاً حميماً للامبراطور سبتيموس سافروس . وقد بلغت منزلته بين علماء الرومان ان شرعة سنة ٤٢٦ قضت بانه اذا تساوت آراء العلماء في معضلة قانونية يرجع الى راي « بابينيان » فيكون فصل الخطاب

وامثال اولئك الاقطاب كثيرون مثل « برفير الصوري » و « لوسيانوس السميساطي » و « يوليوس بولس » ممن كان يشار اليهم بالبنان بين علماء الرومان

وقد بلغ من احترام الرومان لفينيقيا ان ذلك الشعب الجبار الذي دوّخ العالم وسادَ الشعوب لم يستنكف من ان

يجلس على عرش روما امبراطرة من اصل فينيقي فكان منهم « سبتيموس سافروس » وقد ملك من سنة ١٩٣ الى سنة ٢١١

«وسبتيموس جيتا» واخوه «كاراكلا» : ملك الاخوان سوية من سنة ٢١١ الى سنة ٢١٢ ثم ملك كاراكلا وحده الى سنة ٢١٧

« واليوجبل » او « اله الجبل نسبة الى جبل لبنان » وقد ملك من سنة ٢١٨ الى سنة ٢٢٢

«والكسندر سافروس» ملك من سنة ٢٢٢ الى سنة ٢٣٥

ومن المعروف في تاريخ روما ان عصرها الذهبي وتفوقها الادبي كان على عهد الامبراطورين من آل سافروس سبتيموس والكسندر، فقد اتخذا لهما مستشارين واخصاء من مواطنيهم الفينيقيين امثال باينيان واولبيان ويوليوس بولس فكانوا كالهالة الوضاءة احاطوا بالعرش الروماني فانبعثت منه الى العالم انوار العلوم والمعارف والقوانين الاجتماعية مما لم يسبق له مثيل في التاريخ. ومن مآثر ذلك العصر الذهبي

---

٢ جان يانوسكي : تاريخ سوريا القديمة ف ٧ ص ٧٩

وضع الشرائع المدنية وتخفيف الضرائب عن عاتق الاهلين وتحسين حال الجندي وانشاء المصارف واقامتها على قواعد تمكنها من تسليف المال بفائدة قليلة

وقد كان الامبراطور الكسندر سافروس على جانب عظيم من دعة الاخلاق وسمو المبادئ فنبذ عادات الفخفخة في البلاط الامبراطوري وله في ذلك قوله المأثور: « ان عظمة الامبراطورية تقوم على الاخلاق لا بالفخفخة والأبهة الظاهرة »

وقد أوصل اولئك الامبراطرة الى مقام يحسر دونه الطرف عزم اشم وهمة قعساء وثقة بالنفس لا تهي: فيها امثلة وعبر للمتأخرين...

وان شعباً ينجب امثالَ اولئك العلماء ويدفع الاقدامُ ابناءه الى تبوء عرش القياصرة لحقيق بان يحفظ التاريخ حرمته ويحترم العالم كرامته على كرور الازمان

وقبيح بالاحفاد وان قدم العهد ان يتطرق القنوط الى قلوبهم ويستولي اليأس على هممهم فيفقدوا ثقتهم بانفسهم

وبأمّتهم : فانّ افظعَ ما يُمنى بهِ شعب فقدُ الثقة بنفسه ، وهم لوشاؤوا لنهض بهم الجدّ ومشوا الى حيث يعجز عن اللحاق بهم ابناء الأمم الأُخرى

*

ولم تفارق اللبنانيين ، على عهد الدولة الرومانية ، همّة اجدادهم الفينيقيين بل رادوا الاقطار كما رادها آباؤهم فحمل اهلُ بيروت وجبيل وصور الى العالم مصنوعاتهم ومحصولاتهم كالانسجة الحريرية والفراء والطيوب والبهار وانشأت نزالاتهم المحلات التجارية في المدن التي نزلتها فكان للصوريين والبيروتيين محالّ في اعظم فرض ايطاليا لاسيما « اوستيا » « وبوزولي » من اعمال نابولي وفي « سالونا » بدلماسيا وفي « اسكولي » على الادر ياتيك وفي « ملاكا » من اعمال اسبانيا وفي جرمانيا وفرنسا لاسيما في « بوردو » « وليون » « وباريس » « واورليان »

وقد كثرت الجاليات الفينيقية اللبنانية في بعض تلك المدن حتى اصبح لهم فيها شأن سام مكنهم من

تشييد المقامات الدينية لاقامة شعائرهم فيها ، فقد اثبتت مجموعة الخطوط اللاتينية ان جالية بيروتية اقامت في « بوزولي » نصباً للمشتري الاعظم البيروتي .

وروى القديس غريغوريوس اسقف طور[1] انه لما اتى الملك جونتران بن كلوتر الاول الى مدينة اورليان خرج الشعب لملاقاته وكانوا يجأرون بالدعاء له بالعبرانية والسريانية واللاتينية . واثبتت مجموعة الخطوط اللاتينية من الخطوط التي عُثر عليها في مقبرة مدينة كونكورديا ، في ايطاليا الشمالية ، ان الاجانب المدفونين هناك جميعهم سوريون[2]

وقد كانت النصرانية في لبنان على عهد الرومان تتقلب بين الاعزاز والاضطهاد فطوراً يحميها ملوكهم فيشتدّ ازرها وطوراً يناصبونها العداء فيقوى ساعدُ الوثنية عليها :

---

١ غريغوريوس اسقف طور ولد سنة ٥٣٨ وتوفي سنة ٥٩٤ وكتب تاريخ الفرنجة . وجونتران هو ابن كلوتر بن كلوفيس ولد سنة ٥٢٥ وتوفي سنة ٥٩٣

٢ الدبس ج ٤ ص ١٤٨

فلما جلس « قسطنطين الكبير » على عرش الاستانة أذاعَ في سنتي ٣١٣ و ٣٢٤ أمرين أباح فيهما للنصارى مباشرة دينهم واقامة شعائرهم على ما يشتهون فرسخت اذ ذاك قدم المسيحية في لبنان ثم ما لبثت ان ذلّت على عهد « يوليانس الجاحد » ثم عادت فاعتزت على عهد « تاودوسيوس الكبير »

وما زالت بين ارتفاع واتضاع حتى قُدّر لها ، على ما اثبته العلماء ، ان تظفر فيه نهائياً على جيوش الاوثان في القرن السادس « بفضل الشعب الماروني »[1] فأصبح لبنان منذ ذلك العهد موئلاً للنصرانية في سوريا

***

يمزج العلماءُ معظمَ تاريخ لبنان بتاريخ الموارنة من الجيل السادس الى الجيل السادس عشر. والذي يهمنا من

---

١ الاب لامنس : تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار ج ٢ ص ٢٣٩

تاريخ الموارنة في هذا البحث استقراءُ تاريخ لبنان فاذا جرى ذكر الموارنة فمن حيث انهم لبنانيون فقط :

نشأتِ المارونيةُ في اوائل الجيل الخامس في شمال سوريا في البلاد الواقعة بين انطاكية وقورش حيث تصدّى «القديس مارون» لمحاربة الاوثان فقام يدعو الناس الى الدين المسيحي فذاعَ صيتُ فضائله وراسله القديسُ «يوحنا فم الذهب» واهتدى على يده كثيرون الى النصرانية [١] ولم يقضِ القديس مارون نحبه الاّ وله تلاميذ عديدون خلفوه في الدعوة والتبشير فتبعهم جمهور غفير اُطلق عليهم لقب «الموارنة» وقد اخذ الموارنة يهاجرون من وادي العاصي الى لبنان فسكنوا اولاً جهاته الشمالية حيث انضمّ اليهم اللبنانيون المقيمون في تلك النواحي وامتزجوا بهم فاصبحوا جميعاً شعباً واحداً لم يقتصر نموُّهُ على جهات الشمال من لبنان بل تعداها الى اواسطهِ ثم الى جنوبهِ .

---

١ الدبس : تاريخ سوريا ج ٥

الدويهي : (البطريرك اسطفان) : تاريخ الطائفة المارونية ص ١٧ ومايليها

وما زالوا على نموّ وازدياد واستقواء حتى تقلص ظلّ الوثنية من لبنان على يدهم فاصبح اللبنانيون والحالة هذه شعباً مسيحياً واحداً تجمعهم وحدةُ الدين وتشدُّ أواصرهم رابطةُ المصلحة المشتركة

ولم يلبث ان شعر ذلك الشعب في بدءِ أمرهِ انهُ قبل كل شيء «عنصرٌ مسيحي» امتزجت وطنيتهُ بدينهِ واندغمت قوميتهُ بمذهبهِ ، ساعَدهُ على سلوك هذا السبيل والاسترسال فيه التفافُ جيرانه من اليعاقبة اولاً والمسلمين بعدهم حولَ العنصرية الدينية وانضواؤهم تحت لواء العصبية المذهبية فكان من ثَمَّ بين الفريقين مناوءات وعداوات افضت باللبنانيين الى التحصن في جبالهم والاعتصام بمعاقلهم ذائدين عن دينهم واستقلالهم منعاً للاجنبي من التدخل في امورهم والقضاء عليهم

وقد ظلت «العنصرية المسيحية» رائد اللبنانيين في وطنيتهم دهراً طويلاً فقامت سداً منيعاً في وجه الفاتحين الذين تقلبوا في سوريا فهي التي حَمَت لبنان وصانت حريتهُ

واستقلاله منذ الجيل السابع حتى الفتح التركي في الجيل السادس عشر وفيه ظهرت تباشير «القومية اللبنانية» التي حلّت محلّ العنصرية المسيحية

واول مرّة أُتيح فيها للبنانيين ان يثبتوا الملأ قوةَ عنصريتهم وبأس رجالهم كانت يومَ ردوّا تيار الغزاة من العرب عن جبالهم فظلّ ثابتاً عزيز الجوانب بينما اركانُ المملكة الرومانية تنهار حواليه ويولي هرقلُ الادبار امام جيوش المسلمين.

الباب الثالث

لبنان على عهد الردة والعرب

في مستهلّ القرن السابع للمسيح أُطلق من الحجاز جوادٌ عربيٌّ صميم فاجتاحَ الحجازَ والجزيرة ولم يقف به خالدُ بن الوليد وعبيدةُ بن الجراح الاّ وقد ساقا امامهما خيلَ الروم حتى اليرموك وحمص وحماه وقنسرين فدوخا الاقطار الشامية ولم يلبث ان أنفذَ عمرُ بن الخطاب الى مصر وفارس غزاتهَ فاتحين.

ولم يكد يستقرّ الامر لمعاوية في الشآم حتى طمح بابصاره الى القسطنطينية وريثة أمجاد الرومان وعنوان عظمتهم بعد روما، فسيرّ عليها في سنة ٤٨ هجرية جيشاً

كثيفاً مع سفيان بن عوف فشى العربُ من فتح الى فتح حتى بلغوا أبوابَ القسطنطينية وضربوا عليها حصاراً محكماً. وكان في ذلك الجيش خيرةُ قواد العرب كابن عباس وعمر بن الزبير وابي ايوب الانصاري[1]

وقد اجمع المؤرخون الذين كتبوا حوادث تلك الايام انّ من اكبر العوامل في خيبة معاوية ورجوعه عن فتح عاصمة الروم، غاية مجهوداته ومنتهى آماله، كان خروجُ اللبنانيين عليه في سوريا. وبيان ذلك ان العرب دوّخوا الشام فخضعت لهم اقوامها واندغمت فيهم صاغرةً الاّ ان لبنان ظلّ قائماً في وجههم يتشبث اهلوه بعنصريتهم واستقلالهم ولهم في جبالهم ما يشاؤن من القوة والمنعة

فلم يحسن العربُ السياسة مع لبنان فبدلاً من ان يحترموا نزعة قومه الى الحرية وتشبثهم بالاستقلال فيستميلوهم اليهم ويحالفوهم على الاجانب دفعهم حبُّ السلطة والتوسع الى مناوأة اللبنانيين كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً. فلم ينم

---

١ ابو الفداء ج ١ ص ١٩٧

اللبنانيون الاباسل على الأذى ويستسلموا للفاتحين بل باتوا في قمم جبالهم ممتنعين يرقبون الفرص لردّ اطماع الغزاة عنهم وحملهم على احترام عنصريتهم واستقلالهم . فلما سمعوا بفتوح جيش معاوية وبأنه اخذ يضرب القسطنطينية وهي تكاد تسقط في يده راعهم الامرُ لميلهم للروم ، وهم نصارى موالون ، ولخوفهم من استفحال شوكة العرب وهم لم يحترموا حقوق اللبنانيين ولم يراعوا امتيازاتهم . فلما اشتدّت وطأةُ العرب على الروم ، وعاهلهم يومذاك قسطنطين اللحياني ، دعا الملكُ قسطنطينُ اللبنانيين لنجدته فلبّوه سراعاً وهبطوا من معاقلهم واخذوا يصلون معاوية حرباً دراكاً وقتالاً مضنكاً حتى أفسدوا عليه خططه فلم يعدْ بامكانه التفرغ لمحاصرة القسطنطينية بل اضطرّ الى الاهتمام بأمر اللبنانيين وردّهم عن المدن والاقطار الشامية وهي مهد قوته وقاعدة ملكه . فأكره على مفاوضة الملك بامر الصلح ووقعه له على ما يوافق مصلحة الروم فنجت بذلك « بيزنطية » من فتحٍ قُدّر لها وقوعُه بعد مضيّ

ثمانية اجيال على يد محمد الثاني سنة ١٤٥٣

واليك الشواهد التاريخية على ما تقدم :

جاء في تاوفانوس المؤرخ اليوناني عن سنه ٦٦٩ : « ولما سمع معاوية ومستشاروه (بغزوات المردة) خافوا خوفاً شديداً حتى انهم ارسلوا رسلاً الى قسطنطين الملك في طلب الصلح وفوّضوا ان يعرضوا ايضاً الجزية السنوية ... ومن بعد الاخذ والرد في امر الصلح تمّ الاتفاق كما يلي : ان يدفع العرب لخزينة الروم كل سنة ثلاثة الآف وزنة من الذهب وثمانية الآف مملوك وخمسين فرساً كريماً . » وجاء فيه عن سنة ٦٧٦ : « وبسبب غزوات المردة في الارجاء التي حول لبنان .. طلب هو نفسه (اي عبد الملك) تجديدَ عهود الصلح التي كانت عُقدت على عهد معاوية فأرسل رسلاً الى الملك في ذلك وتعهد بان يقدم ٣٦٥ وزنة من الدنانير الذهبية ومثل هذا العدد من المماليك وقدراً لا يقلّ عنه من الخيول الكريمة . »[١]

---

١ مجموعة الاباء اليونان ج ١٠٨ ص ٧٢٢ ومايليها

وقد دوّن ايضاً تلك الحوادث المؤرخ اليوناني سدرانوس حيث جاء ما ترجمته ملخصاً : « وفي السنة الثامنة لقسطنطين اللحياني بلغ المردة من القوة في لبنان انهم اوقفوا تقدم العرب وارغموا الخليفة معاوية على طلب الهدنة من الروم لثلاثين سنة على ان يدفع العرب جزية قدرها ٥٠ فرساً كريماً ومئة مملوك وعشرة الآف ذهباً »[١]

وفي ذلك يقول الشدياق : « لما حاصر معاوية قسطنطين الملك اللحياني في القسطنطينية أرسل الملك قسطنطين يستنجد بالمردة فانجدوه وكفوا عنه العرب فاضطر معاوية ان يعقد الهدنة للملك قسطنطين . »

وقد ذكر الشدياق في تاريخ سنة ٦٩٩ : « ان الملك طيباريوس أرسل عساكره لغزو الشام ومحاربة العرب الذين دخلوها فكتب الى الامير سمعان امير جبل لبنان ان ينجده بالعسكر فاجابه وارسل الجيوش نحوهم الى ان شارفوهم فالتقى حينئذٍ العسكران وما زالوا بهم الى ان استظهروا على العرب

---

١ فولني : رحلة الى سوريا وفلسطين ج ٢ ص ١٠

فلما بلغ طيباريوس ذلك داخله السرور وخلع على الامير سمعان وعظمه »[1]

وقد تبسط في سرد تلك الحوادث المسيو جول دافيد في تاريخه « سوريا الحديثة » حيث جاء عن مساعدة اللبنانيين للروم واضطرارهم معاوية الى تحويل قواته عن القسطنطينية ما ترجمته ملخصاً : « اما ما اضطر العرب الى تحويل قواهم عن الروم فقد تمّ على يد امة جديدة كانوا يسمونها « الموارنة » . فان ما أبداهُ رجال تلك الامة من الجرأة والعناد في القتال وما اظهروه من الدراية والهمة في خططهم ومن الحكمة في توزيع قواهم كل ذلك استرعى بال معاوية وما لبث ان راعهُ الامر حتى اضطر الى تحويل قواه عن حصار القسطنطينية فلم يتمكن من ارسال كل جيشه عليها

« فامام هذه الحوادث يتساءل المرء كيف نظّمَ ذلك الشعبُ نفسه ؟ بل كيف بلغت منه الهمة والنشاط حدًّا

---

١ الشدياق ص ٢٠٨

مكّنه من الوقوف في وجه ذلك الغازي المكتسح يوم كان القنوط عمّ سائر مسيحيي سوريا ؟ ..

« تلك امورلا يمكننا تبيانها الاّ اذا رجعنا شيئاً الى الزمن الغابر .. وعلى كلّ فمن الثابت انه كان في نفس ذلك الشعب منذ القدم روح كبيرة ونزوعٌ قويٌ الى الحياة حتى تمكن على ممرّ الاجيال من ردّ اطماع المسلمين عنهُ فذاق في جهاده المتواصل حلوَ الحوادث ومرّها ولكنه لم يفقد في كل حال حتى يومنا هذا قوميتَه ودينَهُ وعاداته. اما اصل عصبة اولئك الابطال التي صارت شعباً فيما بعد فقد اختلف فيهِ المؤرخون : فمن قائل أنهم هم « المردة » الذين كان لهم كل مميزات سكان الجبال كالشجاعة وحب الاستقلال .. وعلى كلّ فسواءٌ كان هذا الشعب من المردة او كان منذ الاعصر الاولى من سكان جبال لبنان او كان مجموعاً من المسيحيين الذين فزعوا الى لبنان على عهد الفتح الفارسي او الفتح الاسلامي فالحقيقة التي لا جدال فيها هي ان ذلك الشعب كان قد أصبح في اواخر الجيل السابع

في سوريا على جانب عظيم من القوة وان معاوية اضطر ان يحسب له حساباً وانه كان يومئذٍ على ما اكدّه المؤرخ تاوفانوس قد مدَّ رواق ملكه من جبل طوروس في اقصى شمال سوريا حتى الجليل حوالي اورشليم المدينة المقدسة.»

وبعد ان يذكر المؤلف ما قيل في أصل الموارنة مما لا دخل له في هذا البحث يأتي على مافعلوه من الاعمال الباهرة في سبيل حرّيتهم واستقلال بلادهم قال:

«كان الموارنة شديدي التعلق باستقلالهم حتى التعشق كثيري التشبث بدينهم عن اعتقاد حيّ ... من اجل ذلك لم تهن لهم عزيمة في ردّ حملات العرب عن بلادهم حتى انهم في مزاولة الحروب ومداومتها قد ألفوا فنَّ القتال فلم يلبثوا ان اصبحوا جنوداً محنكين ورماةً مدرّبين وفرساناً أباسل لم يكتفوا بردّ الاجنبي عن بلادهم بل طمحوا الى توسيع سلطانهم فتبسطوا فيه من جبل طوروس شمالاً الى الكرمل جنوباً.»

«ومن الحصون التي انشأوها «بسكنتا» في سفح لبنان

الشرقي «والحدث» في وادي النهر الكبير و «بشراي» على منبسط الجبل وقد اصبحت فيما بعد عاصمة الموارنة»

«ولما غزا العربُ سوريا راعَ فتوحُهم الجبلَ في بادئ الامر فلجأ الموارنة الى حصونهم يرقبون مرور تلك الزوبعة حتى اذا تفرّقت قوات المسلمين في العالم عاد الموارنة الى القتال بعنادٍ شديد.

«وبينا المدن السورية نائمة عن قتال العرب كنت ترى الموارنة يواصلونهُ بلا انقطاع وقد بلغ منهم البأس مبلغاً جعلهم يهزأون بأمر امبراطور القسطنطينية حين اشار عليهم بملازمة السكينة، فانهم رغم اشارته لم يلقوا السلاح قط.»

ثم يتطرق المؤرخ الى ذكر ما عاناه العرب من اللبنانيين ويأتي على بيان ما حاولهُ معاويةُ من الاعمال توصلاً الى خضد شوكتهم وكسر شرّتهم فلم ينل منهم منالاً قال:

«عبّى معاويةُ جيشاً لجباً وسيّرهُ على لبنان حتى يبسطَ سلطتهُ على سوريا كلها وقد قسم جيشه الى ثلاثة

فيالق واصدر أمره ان تطبق في وقت واحد على جبيل وبسكنتا وبشراي . فردّت تلك المدنُ حملات الهاجمين ودافعت دفاعاً باسلاً فتمكنت بفرط ما بذلت من جرأةٍ وثبات من ارغام العرب على رفع الحصار .. وبعد ما نال الموارنةُ ما نالوا من التوفيق والنجاح جمعوا شملهم من كل صوب حتى الفوا جيشاً ينيف على الثلاثين الفاً واحتلوّا بامرة خيرة قوادهم مواقعَ حصينة اخذوا يشنون منها الاغارات على وادي العاصي وسهول دمشق وأكرهوا ما يناهز الستين الفاً من العرب على الوقوف امامهم في سوريا ، ولولا قتال هؤلاء الحلفاء المتواصل وما اظهروه من الشجاعة والحنكة لتفرغت تلك الجيوش لحرب الروم وتمكنت من الزحف على القسطنطينية ، وربما كانت تلك القوة كافية كافلة لسقوط العاصمة البيزنطية : ذلك هو العامل الكبير الذي ذكرناه في بدء كلامنا والذي كان له الفضل الاكبر في درء الخطر عن عاصمة الامبراطورية الرومانية »[١]

---

١ جول دافيد : سوريا الحديثة ص ١١٣ ومايليها

فمساعدة لبنان للروم على العرب تثبت استقلال لبنان منذ هاتيك الايام واستبسال ذلك العنصر اللبناني في الذود عن حريته وامتيازات بلاده . ولو لم يكن لبنان يومئذٍ ذا مركز خاصّ لأكره اللبنانيون على القتال مع العرب اسوةً بسائر الاقطار السورية.

وقد ظلّ اللبنانيون على استقلالهم حتى قدم الصليبيون الى سوريا فحالفَ لبنانُ الصليبيةَ على الدولة الفاطمية لذات الاسباب التي جعلته في الجيل السابع يحالف الروم على دولة بني امية .

وقد نالت الصليبيةُ من تلك المحالفة ما ناله الرومُ قبلهم من الفوائد فكان للبنانيين في نجاح الصليبيين وفوزهم فضلٌ كبير ذكره لهم المؤرخون

الباب الرابع

لبنانه على عهد الصليبيين [١]

لم يهتزّ العالم منذ بدئه لعاطفةٍ او لفكرةٍ اهتزازه لنعرة الدين سواءٌ أتاه على يد بوذا او موسى او عيسى او محمد

في نهاية القرن الحادي عشر دَوَى في اوربا صوتُ داعٍ الى الجهاد رَدَّدتْ صداه ممالكها من الشمال الى الجنوب ، فجرفت النعرةُ الدينية سيلاً عرمرماً من الرجال والنساء والاولاد تدفق من الغرب على الشرق ، ولم يحلْ دون تيارهِ ما اعترضه من الاهوال والكوارث برداً وجوعاً

---

١ راجع الكردينال هرجنرتر : تاريخ الكنيسة ج ٤
والدبس : تاريخ سوريا ج ٦
وابا الفدا : ج ٢

وعطشاً ومرضاً واقتتالاً : تلك هي الحروب الصليبية [١]

ولم تصل جيوشُ الصليبية الاولى الى سوريا الاّ وهي منهكة القوى ، حتى انها حين شارفت لبنان كان بلغ منها الاعياءُ مبلغه فلو تصدّى لها فيه عندئذٍ جيشٌ معادٍ لظفر بها ، وقد لا يكون قام للصليبية بعدها في الشام ذلك الملك الواسع الذي تمّ لها حوالي المائتي سنة

الاّ ان الدولة الفاطمية التي كان لها الحكم عهدئذٍ في سوريا وقعت في نفس الخطأ الذي سبق للامويين ارتكابه فهي لم تضرب صفحاً عن الفوارق الدينية فتُحالف لبنانَ

---

١ حملات الصليبية ثمان : الاولى : ١٠٩٦ — ١٠٩٩ بشر بها بطرس الناسك (بيار لارميت)

الثانية : ١١٤٧ — ١١٤٩ بشر بها القديس برنردوس وسارت بامرة كونراد الثالث امبراطور المانيا ولويس السابع ملك فرنسا وحاصرت الشام وعجزت عنها واضطر الملكان الى الرجوع الى اوربا

الثالثة : ١١٨٩ — ١١٩٢ بشر بها غليوم مطران صور وزحفت بقيادة فردريك بربروس امبراطور المانيا وفيليب اوغست ملك فرنسا وريشارد قلب الاسد ملك انكلترا

الرابعة : ١٢٠٣ — ١٢٠٤ بشر بها فولك دي نولي وقادها بودوين التاسع كونت دي فلاندر

حتى يكون معها يداً واحدة في الملمات الطارئة ، فظلّ اللبنانيون والحالة هذه ينظرون الى كل غازٍ مسيحي نظرهم الى حليفٍ طبيعي تجمعهم واياه رابطةُ الدين وهي اذ ذاك اقوى الروابط وأمتنها

وكما استفاد الروم من اللبنانيين على عهد معاوية هكذا استفاد الصليبيون من لبنان يوم بلغوا سوريا ، فانهم استنجدوا اللبنانيين فلباهم لبنانُ بخيلهِ ورَجلهِ وفيه يومئذٍ من الرجال الاشداء المدرَّبين على حمل السلاح من يعدُّ بالألوف ، فانضموا الى الصليبيين وغشوا معاً الاقطار الشامية فقامت الصليبية على اطلال الدولة الفاطمية وكان في ذلك للبنانيين يدٌ جلى ذكرها لهم المؤرخون . فقد جاء في « سوريا الحديثة » لصاحبها جول دافيد عن وصول الصليبيين الى لبنان في

الخامسة : ١٢١٩ ـ ١٢٢١ بامرة جان دي بريين ملك اورشليم واندراوس ملك المجر

السادسة : ١٢٢٨ ـ ١٢٢٩ قادها فردريك الثاني خليفة جان دي بريين على مملكة اورشليم

السابعة : ١٢٤٨ ـ ١٢٥٢ قادها لويس التاسع ملك فرنسا وانكسر في مصر في واقعة المنصوره

الثامنة : ١٢٧٠ ـ قادها لويس التاسع نفسه وتوفي امام تونس

طريقهم الى القدس ما ترجمته :

« بعد ان مشى الجيش (جيش الصليبيين) بضعة ايام على سفح لبنان وصل الى حيث لم يكن بدّ من الولوج في الجبل فتغيرت حينئذٍ الامور على غير ما يريد الصليبيون فان الجبال كانت عالية نوائ تطلُّ على هاويات عميقة اذا زلَّ اليها المرءُ تهشَّم في انحداره على نواشزها ، فساروا على دروب منهكة ضيقة ، تملأها حصى زالقة ، وتعلوها صخورٌ هاوية ، ومن الجانبين وديان بعيدة القرار ، فلو تصدّى للجيش بضعةُ انفار من الاعداء في بعض هاتيك المآزق لصدُّوه ونالوا منه ، الاّ ان الجيش لحسن حظهِ ، لم يلق في مسيرهِ شيئاً من ذلك ، بل كان الامر بالعكس فان ضلعَ اهالي الجبل كان مع الصليبيين . اولئك هم « الموارنة » الذين ساعدوا الصليبيين فكانوا هداةً لهم في الطريق وسباقاً للجيوش . وهكذا مرَّ الصليبيون امام بيروت وصيدا وصور مواصلين زحفهم بلا قتال .. » [١]

---

١ جول دافيد : سوريا الحديثة ص ٢٨٤

وقد نوّه بذكر أعمال اللبنانيين وما بذلوه من المعونة الفعالة مؤرخو الصليبيين الذين دوّنوا حوادث تلك الايام وكانوا عليها شهودَ عيان كغليوم مطران صور وجاك دي فيتري مطران عكا وغيرهما

من ذلك ما جاء في تاريخ غليوم مطران صور عن الموارنة اللبنانيين:

« ولم يكن ذلك الشعبُ قليلَ العدد فهم على ما يقال يربون على الاربعين الفاً وهم يسكنون ارض فينيقية ولبنان. وكان هؤلاء القوم على جانب عظيم من البسالة والتدرّب على السلاح ولقد ساعدوا قومنا المسيحيين مساعدات جلى في محاربة اعدائنا .. »[1]

وفي ذلك يقول الشدياق:

« انه سنة ١٠٩٩ قدمت الافرنجُ من انطاكيه الى القدس فلما وصلوا الى عرقا وفد اليهم اناسٌ من المردة من جبل سير وصقع الضنية وجبيل، تلك التخوم وترحبوا بهم

---

١ غليوم مطران صور: تاريخ الصليبية ف ٢٢ ص ٨

وسار معهم بعضٌ وهدوهم الطرقات والمسالك حتى بلغوا القدس وكانوا ينجدونهم في الوقائع ويمدّونهم بالميرة.»[١]

وذكر المسيو راي في تاريخه عن «جاليات الفرنجة في سوريا في الجيل الثاني عشر والجيل الثالث عشر» من كلام له عن اللبنانيين انهم في حصار طرابلس قد بذلوا معونة جلى للكونت سان جيل وساعدوه على فتحها[٢]

وما زال اللبنانيون ينجدون الصليبيين بالمال والرجال حتى اتى سوريا الملك لويس التاسع فلم يكتفِ الموارنة بتعضيد الصليبيين في سوريا بل تطوّع منهم عددٌ وافر من لبنان وقبرس، حيث كان لهم جالية كبيرة، واشتركوا في حملة الصليبية السابعة التي زحفت على مصر سنة ١٢٤٥ بامرة الملك القديس. وقد نوّه المؤرخون ببسالة اولئك الشجعان ابناء الجبال ووصفوهم «بحاملي سلاح الايمان في الداخل

---

١ الشدياق ص ٢٠٣

٢ راي: جاليات الفرنجة في سوريا في الجيلين الثاني عشر والثالث عشر ص ٧٨

وسلاح الحديد في الخارج »[1]

وفي ذلك يقول الكردينال «هرجنرتر» في كتابه «تاريخ الكنيسة»:

« كان عدد الموارنة وفيراً في جزيرة قبرس وقد خدموا القديس لويس ملك فرنسا خدمات تُذكر.. »[2]

وقد اشتهرت خدمات الموارنة للصليبيين وعلاقاتهم الطيبة معهم، خصوصاً مع القديس لويس، حتى ان كل من ذكر ذلك العهد لا يرى بدًّا من الاشارة الى تلك الروابط فيثني عليها

من ذلك ما جاء في خطاب القاه البابا لاون الثالث عشر في ٢٣ يونيو سنة ١٨٩٠ اثباتاً لانتخاب البطريرك يوحنا الحاج، قال ما ترجمتهُ:

« وأعمال هذه الامة (المارونية) جليلة طائرة الشهرة ولقد أبدت منتهى الشجاعة يوم حملت السلاح مساعدةً

---

١ لامرتين: رحلته الى الشرق ج ٢ ص ٥٣٥

٢ الكردينال هرجنرتر ج ٤ ص ١٨٢ عدد ٢٦٣

للقديس لويس ملك فرنسا في حروبهِ في الشرق. »[١]

وبعد ان خانَ الجدُّ الملكَ لويس في مصر وأكره على الرجوع الى سوريا لم يتخلَّ اللبنانيون عنه في شدّته بل بادروا الى ملاقاتهِ ونجدتهِ حتى عكا، وكان قد بلغها في ١٤ ايار سنة ١٢٥٠ فكان لعملهم هذا وقعٌ كبير في قلب الملك القديس. وفي ذلك يقول المسيو دي لامرتين في كتابه « رحلة الى الشرق » :

« لما نجا الملكُ القديس من الأسر وعاد الى عكا لاقاه اليها ٢٥ الفاً من الموارنة الموالين وقد ارسلهم اميرهم بأمرة احد ابنائهِ يحملون الميرةَ والهدايا على انواعها. »[٢]

وقد ذكر الشدياق ذلك في تاريخه حيث قال :

« انه لما وصل لويس التاسع ملك فرنسا الى عكا ارسل اليه اميرُ المردة ولدَهُ الامير سمعان ومعه خيل بخمسة وعشرين الف مقاتل نجدة للملك، فلما اقبل الاميرُ رفعَ شأنه

---

١ مجموعة البولات البابوية ص ٥٣٣ للاب طوبيا العنيسي

٢ لامرتين : رحلة الى الشرق ج ٢ ص ٥٣٦

و تلقاه بالترحاب وكتب الى امير الموارنة كتاب شكر ومحبة.»[1]

وقد نشر رسالة الملك هذه البارون دي تستا في مجموعته ولامرتين في كتاب رحلته وذكرها المسيو رينه بينون في كتابه «اوربا والدولة العثمانية» وكثيرون غيرهم من الكتبة والمؤرخين

اما تاريخ تلك الرسالة فهو ٢١ ايار سنة ١٢٥٠ قرب عكا، ومما جاء فيها قوله:

«ان قلبنا أُفعم حبوراً لما رأينا ولدكم سمعان في مقدمة ٢٥ الف رجل مرفداً الينا من قبلكم يبلغنا عواطفكم ويقدم لنا الهدايا والخيول الكريمة..»[2]

و تمكنت العلاقات بين الملك لويس وبين اللبنانيين لما اظهروه من سعة الحفاوة وشدة الاخلاص حتى انه لما

---

١ الشدياق ٢٠٨

٢ الدبس ج ٦ ع ٨٧١ ومايليها وابو الفدا ج ٣ ص ١٨٧ ومايليها
لامرتين: رحلته الى الشرق جزء ٢ ص ٥٣٥ ومايليها
مجموعة البارون دي تستا ج ٣ ص ١٤٠
رينه بينون «اوربا والمملكة العثمانية» ص ٥٤٧
الدويهي (البطريرك اسطفان): تاريخ الطائفة المارونية ص ١١٠

اضطر الملك الى العودة الى بلاده على اثر وفاة والدته الملكة « بلانش دي كستيل » أبقى خواصّ بيتهِ وعسكرهِ في جبل لبنان واستمرّوا فيه [١]

*

وقد لقي اللبنانيون كثيراً من الشدائد في مساعدتهم للصليبيين فلم يكن ذلك ليقف بهم عن مواصلة انجادهم كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً غيرهيابين ولا حاسبين لانتقام الاعداء حساباً . من ذلك ما جاء في « الدويهي » عن مناهضة الملك الظاهر للصليبيين قال :

« في سنة ١٢٦٤ خرج الملك الظاهر بعسكرهِ من الديار المصرية ففتح القليعات وعرقة وهمّ بحصار طرابلس فانقضت عليه رجال الموارنة من الجبال وهزموا عسكره . » [٢]

وقال في تاريخ سنة ١٢٦٦ :

---

١ الدبس : ج ٦ ع ٨٣١ ومايليها

٢ الدويهي ص ٣٧٣

والملك الظاهر هذا هو السادس من دولة المماليك الاولى (سنة ١٢٦٠ الى سنة ١٢٧٧ عن تاريخ مصر الحديث لجرجي زيدان ج ٢ ص ١٤)

« ثم اغار الملك الظاهر على طرابلس فقطع اشجارها وغوّر انهارها وخرّب اربعاً وعشرين من قراها فانسكبت عليه رجالُ المردة من الجبال ففرّ هاربا »[1]

ولم ينم ملوكُ مصر على الأذى بل باتوا يرقبون الفرص لأخذ طرابلس من يد الفرنجة وللانتقام من اللبنانيين.

ففي سنة ١٢٨٧ سيرَ الملك المنصور قلاوونُ الالفي حملةً على طرابلس ففتحها وارسل جيشهُ يعيث في لبنان فنال منه اللبنانيون وهزموه شرَّ هزيمة على ما جاء في تاريخ بيروت لصالح بن يحيى حيث قال:

« في شهر شعبان سنة ٦٩١ (١٢٩٢) توجه الاميرُ بيدرا قائد السلطنة بمصر وقصد جبال كسروان وتوجه بصحبته من الامراء الاكابر شمس الدين سنقر الاشقر والامير قرا سنقر المنصوري والامير بدر الدين بكتوت الاتابكي والامير بدر الدين بكتوت العلائي وغيرهم واتاهم من جهات الساحل ركن الدين بيبرس طقصوا والامير عزّ الدين

---

١ الدويهي ص ١١١ و ١١٢

ايبك الحموي وغيرهما . والتقوا بالجبل وحضر الى الامير بيدرا من ثنى عزمهُ وكسر حدّتهُ فحصل الفتورُ في أمرهم حتى تمكن الكسروانيون من بعض العسكر في تلك الاوعار ومضايق الجبال فنالوا منهم . وعاد العسكر شبه المكسور المنهزم وطمع فيهم اهلُ تلك الجبال حتى اضطرَّ الامير بيدرا ان يطيب قلوبهم ويحسن اليهم وخلع على جماعةٍ من اكابرهم .. وحصل للكسروانيين من القتل والنهب والظفر ما لم يكن في حسابهم .»[1]

وكان انتصارُ اللبنانيين للصليبيين من اكبر العوامل في توسيع شقة الخلاف بينهم وبين حكام سوريا حتى اصبحوا معهم في قتالٍ مستمرّ زمناً طويلاً نال منها لبنان اهوالاً ومشقات لا محل للتبسط فيها

---

١ المشرق : تاريخ بيروت مجموعة السنة الاولى ص ٢٢٨ ـ بيدرا كان من مماليك الملك المنصور قلاوون استنابه الملك الاشرف في دمشق ثم جعله نائب السلطنة ولم يلبث ان دس لولي نعمته الدسائس فقتله بمشاركة الامراء المماليك وعهدت اليه السلطنة بعد الاشرف وتلقب بالملك القاهر الا ان ملكه لم يدم الا يوماً واحدا فقتل سنة ٦٩٢ (١٢٩٤)

ولم تنس فرنسا فضل لبنان على الصليبية بل ذكرته لهُ ابانَ عزّها مما حمل لويس الرابع عشر وخلفاءه على مبادلة اللبنانيين بالمثل كلما وجدوا الى ذلك سبيلاً كما تثبت مراسيمهم العديدة الى اللبنانيين، اخصهم بيت الخازن وبيت سعد الخوري، واقامة كثيرين منهم قناصل في بيروت لدولة فرنسا: منهم الشيخ ابو نوفل الخازن من سنة ١٦٦٢ الى وفاته ١٦٧٩ فخلفه ابنه الشيخ أبو قانصو الى وفاته سنة ١٦٩٧ فخلفه ابنه الشيخ حصن الى وفاته سنة ١٧٠٨ فخلفه ابنه الشيخ نوفل الى سنة ١٧٥٣. ثم تقلدها الشيخ غندور الخوري سنة ١٧٨٨[١]. وقد كان لهؤلاء القناصل اللبنانيين يدٌ طولى في توسيع نفوذ فرنسا في الشرق كما تثبت ذلك مراسيمُ ملوكها لهم كقول الملك لويس الرابع عشر في رسالته الى الشيخ ابي نوفل:

---

١ مسعد (البطريرك بولس): «الدر المنظوم» ص ١٨٦ ومايليها
الدبس: تاريخ سوريا ج ٧ ع ١٠١٦ وع ١٠٥٨
الشدياق: ص ٨٧ ومايليها وص ١٠٥

« قد تحققنا كل ما يُبديه السيد ابو نوفل نادر الخازن من مواصلة العناية والاهتمام لاجل صيانة تاج هذه المملكة حتى انه يصرف اكثر اوقاته فيما يعود بالشرف والنفع لسلطتنا اذ يشهد رعايانا الذين يأتون بلاد المشرق بحسن معاملته لهم وحمايته اياهم ومساعدتهم فيما يصون حياتهم ويحفظ تجارتهم .. »[1]

⁂

ولما تقلص ظل الصليبية من سوريا في اواخر الجيل الثالث عشر كان حكم الاقطاع قد تأصل في لبنان لاختلاط اهليه بالصليبيين وامتزاجهم بهم فحكم فيه على هذا الشكل الامراء والمتدمون والمشايخ

وما زال لبنان على هذه الحال من الحكم الاقطاعي والاستقلال حتى فتح الاتراكُ سوريا على يد السلطان سليم سنة ١٥١٦

---

١ الدويهي : تاريخ الطائفة المارونية ص ٢٣٣ ومايليها

الباب الخامس

لبنان على عهد المقنين

تمهيد

الدولة العثمانية والبلقان ولبنان

الدولة العثمانية

شا دبنو عثمان ملكاً رائعاً نشرت الويتهُ المظفرة في اسيا واوربا وافريقيا فاخضعوا فيها جنسيات شتى وشعوباً مختلفة، غلبوها على امرها بحدّ السيف وبحدّ السيف عادت

(1) DE LA JONQUIÈRE : *Histoire de l'Empire Ottoman*
RENÉ PINON : *L'Europe et l'Empire Ottoman*
V. BÉRARD : *La Révolution turque*
P. ALBIN : *Les Grands Traités politiques*

obeikandl.com

تلك الجنسيات والشعوب فزحزحت عن مناكبها كلكلَ ذياك الجبار الغازي فرجع الى حيث كان او كاد

ولم تنل الانسانية من ذلك الصراع الهائل الاّ المصائب والويلات واراقة دماء الالوف والملايين من العباد

ان في تاريخ بني عثمان لعبراً ناطقة على استظهار الحق على القوّة ، وان طال الزمان واختلفت صروف الحدثان :

وضع « ارطغرل » أُسُسَ سلطانهِ في ظل علاء الدين السلجوقي (١٢٣١) ولم يلبث ان وسع « عثمان » الكبير رحاب ذلك البنيان ووطد قواعده على انقاض الدولة السلجوقية ، ولقب نفسه « بادشاه آل عثمان » (١٢٨١—١٣٢٦) ومات بعد ان اشتدّ به ساعدُ الملك وتركهُ لابناءٍ اباسل ظلوا يتنافسون في الفتح والتوسع حتى ريعت لصولتهم البلقان واهتزّ عرش الروم باربابهِ ووقفت اوربا أمام ذلك التيار الجارف واجمةً لا تعي

فاشرف « اورخان » على القسطنطينية (١٣٥٧) وسحق « مرادُ الاول » جيوش البلغار في تيرنوفا وشوملا

وقوّض اركان الدولة الصربية في سهول قوصوه (١٣٨٧ و ١٣٨٩)

واكتسح «بايزيدُ» البلغار فعظمت شوكتهُ حتى اضطربت اوربا فشهرت عليه حرباً صليبية جمعت كبار امرائها وبسل قوادها فالتقى بايزيد باعدائهِ في سهول «نيكروبوليس» ولم يرجع عنهم الاّ وجيوشهم فلول هائمة تتلقفها سيوف الظافرين (١٣٩٦)

وكان تلك الفترة من الدهر، وهي ما يناهز المئتي سنة، نصراً متواصلاً لاولئك السلاطين. وكأنهم أتعبوا الدهرَ فيها فتحاً وغزواً فقطب في وجههم ولم يكد بايزيد يتمتع بنصرة نيكروبوليس حتى بُلي بواقعة «انقره» فظفر بهِ «تيمورلنك» وأسرهُ، فادالهُ من حالق عزّهِ فهوى بسقوط بايزيد، الى حين، نجمُ الدولة العثمانية (١٤٠٢)

غير انها ما عتمت ان رزقت ذلك الفاتح الكبير «محمد الثاني» (١٤٥١—١٤٨١) فاستعاد للسلطنة عزها بفتح القسطنطينية عاصمة الروم (١٤٥٣) وأسلم لهُ «دافيد كومين»

امبراطور طربيزند الرومي مفاتيح المدينة وخضعت له القرم ودانت له البلقان

ونهج «سليم الاول» (١٥١٢—١٥٢٠) على منوال أسلافهِ ففتح كردستان وديار بكر والموصل ودانت له مكة وصنعاء وغزا مصر وسوريا ومدّ سيادته على لبنان.

وقد قُدّر للسلطان العظيم «سليمان الاول» (١٥٢٠—١٥٦٦) ان يرقى بالدولة الى اوج المجد فاخضع لشوكتهِ ما استعصى على آبائهِ فاخذ بلغراد وفتح رودس وتسابقت الى بابهِ ملوك اوربا، فأغضى عن «شارلكان» ملك اسبانيا، غير أنه لم يردّ سؤل «فرنسوا الاول» ملك فرنسا.

وقد قهر الفرس وفتح قسماً من بلاد الكرج وتوفي عن ملك واسع الاطراف مرهوب الجوانب لم ترهُ الدولة لا قبلهُ ولا بعده، رغم فتوحات تالية ابلغت «كارا مصطفى» وزير «محمد الرابع» الى ابواب فينا سنة ١٦٨٣

وما زالت الدولة تتقلب بين انكسار وانتصار، لا تعرف رأياً الاّ للسيف ولا تحترم الاّ عهد القوّة، حتى جمعت تحت

لواثها امماً وشعوباً مختلفة الاجناس لا حقّ لها عليهم الاّ حق الفتح والغلبة، فبدلاً من ان تقوى بهم كانوا سبباً في ضعفها وآلة لتقطيع اوصالها

أخضعَ السلاطين ممالك البلقان من صرب وبلغار ورومان ويونان، ودوخوا البلاد العربية ومدّوا سيادتهم على لبنان، فما برحت تلك الشعوب تطالّ الى استقلالها وتفكك حلقات القيد واحدةً بعد اخرى حتى تمكنت بعد مغالبة اجيال دامية من استعادة حريتها، ففرّجت عن عنقها كلاّبة الغاصبين وأفلتت من اسرها تتنفس الصعداء، ظمأى الى النور، عطشى الى الاستقلال..

*
* *

البلقان

ملخص تاريخ البلقان السياسي هو ان الدولة العثمانية نشرت رايتها على تلك البلدان منذ القرن الرابع عشر وصيّرتها ولايات عثمانية اقامت على كلٍّ منها حاكماً تركيا كسائر ولايات الدولة. وقد ظلت البلقان تجرّ سلاسل العبودية زهاء

اربعة قرون حتى قام فيها دعاة الوطنية وسعوا الى تكسير تلك القيود بعد ان نفخت فرنسا في العالم روح الحرية وعلمته الانتقاض على الاستبداد .

فعند مغيب القرن الثامن عشر لمعت في فضاء فرنسا صاعقة الثورة الكبرى فترامى دويها الى سماء البلقان فقدحت ثم في فجر القرن التاسع عشر شرارة في صربيا فعلقت في هشيم اليونان وامتدّت الى رومانيا ومنها الى البلغار فالجبل الاسود فاشتعلت شبهُ الجزيرة البلقانية بنار الثورة وما زالت تضطرم فيها حتى التهمت رايات الهلال فتساقطت أعوادُها مزجاةً في ذلك الاتون المسجور ولم تنطفئ نيرانهُ الاَّ وعلم الاستقلال يخفق على اسوار بلغراد واثينا وبوخارست وصوفيا وستنجه .

ولو تركت امارات البلقان وشأنها ازاء الدولة العثمانية لما استطاعت واحدة منهن ، على ما يثبت التاريخ ، ان تخلع عن عنقها نيرَ الفاتحين . غير ان اوربا اخذت بيد تلك الامارات وأنجدتها بالمال والرجال والسياسة ، وما زالت تبذل

لها المعونة حتى تمشت بها من ولايات عثمانية الى الاستقلال الداخلي ثم الى الاستقلال المطلق فكانت اوربا للبلقان كالامّ الحنون تهدهد المهدَ لرضيعها وتواصلهُ بعنايتها حتى يترعرع ويشبّ ويبلغ اشدّهُ

وبين تاريخ البلقان السياسي وتاريخ لبنان السياسي اوجهُ شبه عديده ولعل لبنان جاهدَ في سبيل حريته اكثر مما جاهدت البلقان ، في حين ان اوربا ساعدت البلقان اكثر مما عضدت لبنان

مدّ السلاطينُ سيادتهم على لبنان منذ بدء القرن السادس عشر ، الاّ انهم لم يخضعوه قط كما اخضعوا البلقان ولم يتوصلوا الى تولية حاكم تركي عليه كما فعلوا في صربيا ورومانيا والبلغار والجبل الاسود ، بل ظلّ لبنان محتفظاً باستقلاله الداخلي وبعائلته المالكة الوطنية من المعنيين الى الشهابيين الى عهد القائم مقاميتين حتى معاهدة سنة ١٨٦١

ثارت البلقان سعياً الى نزع السيادة العثمانية بعد اربعة قرون قضتها في العبودية ، اما لبنان فلم ينم يوماً على

الأذى بل بدأت فيه الحركة الوطنية على الدولة منذ بدأت سيادتها عليه تقريباً، وتوالت فيه من نفر الدين الكبير الى الامير بشير الكبير، تارة تستعر وطوراً تخبو، وفي اغلب الاوقات تعقد الوية النصر للبنانيين، حتى تدخلت اوربا في الامر لاول مرّة من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٤٥: وبينما ترتب على تدخلها في البلقان استقلال ممالكه، كانت نتيجة تدخلها في لبنان تجزئة الامارة اللبنانية القديمة وشطر البلاد الى شطرين. ثم تدخلت فيه ثانية سنة ١٨٦١ فاسفر تدخلها عن نزع الحكم من الوطنيين وعن سلخ اراضٍ حيوية للبنان وعن جعل الطائفة اساس الحكومة اللبنانية. وهي امورٌ أضعفت لبنان سياسياً واقتصادياً وكانت اصل كل البلايا التي نزلت به بعد ئذٍ، فلم يتمّ لهُ ما تمّ للبلقان.

وقد كان سبق لاوربا ان تدخلت بين اليونان والدولة سنة ١٨٢٩ فألزمت الدولُ تركيا بالاعتراف لليونان بالاستقلال رغم انتصار الاتراك عليهم في اغلب المواقع.

وقد واصلت اوربا تدخلها في شؤون البلقان وعنايتها

بهم حتى انه لم تأت سنة ١٨٧٨ الاّ ومعاهدة برلين قد جعلت البلقان امارات وممالك مستقلة ، بينما كان المتصرفون في لبنان يفتأتون كل يومٍ على الامتيازات بما خوّلهم اياه النظام من السلطة الواسعة حتى انقصوا تلك الامتيازات ما استطاعوا بدلاً من ان تزاد

ومما يستوقف النظر ان هنالك شبهاً مدهشاً في تطوّر الثورة في البلدان البلقانية : ففي كل بلادٍ منها كان يقوم بطلٌ وطني فيلتفّ حولهُ افرادٌ معدودون ثم يتبعه فريق من الشعب فيحاربون تركيا فيتداولُ الفريقان النصر والغلبة حتى اذا اوشكت تركيا ان تسحق العصاة ، برزت اوربا الكريمة كالملك المنقذ ، فمدّت يدها اليهم فانتزعتهم من مخالب المنون ومنحتهم فوق ما كانوا يحلمون به

وهنالك ايضاً أمرٌ يستوقف النظر وهو ان كل ممالك البلقان قاست في اول عهدها اهوالاً ومحناً داخلية تشيب لفظاعتها الأطفال فلم تكن تلك المصائب لتثني عزمها عن مواصلة السعي والجهاد في سبيل غايتها ، وما زالت تتقلب بين القلاقل

والثورات حتى استقرّ لها الملكُ موطد الاركان

اما لبنان فلم يكن يسعده الحظ ، اثناء حروبهِ المتواصلة مع الدولة ، بان يجد من يعينه على تحقيق « غايته الوطنية » فذهب والحالة هذه هدراً كلُّ ما أراقهَ من دم ذكيّ على ممرّ الاجيال في سبيل الاستقلال .

واليك البيان بايجاز عن صربيا واليونان ورومانيا والبلغار والجبل الاسود ، ثم لبنان : فكم ثَمَّ من عبر وعظات..

*

صربيا

نشر راية الثورة في صربيا سنة ١٨٠٤ بطلها المشهور « كارا جورج » . وقد كانت عاصفة الاستقلال والوطنية قد فاقت في صدرهِ كلَّ عاطفه سواها فمشى لا يحسب للموت حساباً ولا يرى دون غايته حائلاً ، ومما يؤثر عنه انه لما ثار على الدولة اضطر الى مغادرة البلاد ليهيئ معدات الثورة خارجاً عنها . فامتنع والدُهُ عن اللحاق بهِ وحاول ان يثنيه عن عزمهِ خوفاً عليه وحذراً من الفشل ، فأخذ

كارا جورج يضرع الى ابيه ان لا يثبط عزيمته وعزائم من حولهُ وان يضحي بكل شيء في سبيل الوطن ، وارتمى على اقدامهِ يقبلها مستعطفاً . فلم يرجع الوالدُ عن رايه بل توعد ابنهُ بافشاء أمرهِ وامر اصحابهِ اذا هم لم يخلدوا الى السكينة ويعودوا الى منازلهم هادئين . ولما طال الامرُ بين الوالد والولد ورأى كارا جورج تصميم ابيه ، وانه سيقتل الثورة في بدئها ويودي بهِ وباصحابهِ فيشتدّ نيرُ الاتراك على البلاد ، صعد الدمُ الى راسهِ وتملكته ثائرةُ الغضب لوطنهِ فأخذ والدهُ بين يديهِ وهزّهُ صائحاً به :

« خيرٌ لك ان تموت ايها الشيخ التاعس من ان تموت البلاد » ، ورماهُ برصاصة فقتله

ولم تكن البلادُ لتقعد عن دعوة رجل بلغ منه التدلّه في الوطنية مثل هـذا المبلغ فقام الشعبُ لصوته والتفّ الصربُ برايتهِ فشهر الحربَ على الدولة وظفر وعسكرهُ بجيوشها في مواقع عديدة على قلة عددهم وكثرة جيوش الدولة. واخصّ انتصاراته كانت في موقعتي شبتس وووارين ، حيث هزم

بثلاثة الآف مقاتل جيشاً من الاتراك لا يقل عن الثلاثين الفاً ، كما فعل يوسف بك كرم في لبنان بعدها بستين سنة حين هزم برجاله الثلاثمئة ، اربعة الاف من جنود الدولة .

ولم يُسعد الجدُّ كارا جورج حتى النهاية ، فتغلب العددُ على البسالة وانتصرت القوةُ على الحق ، وقد لقي كارا جورج معارضات من بعض اعضاء الحكومة التي كان هو نفسها اقامها في صربيا فاضطر الى الالتجاء الى بلاد المجر ووقع اخيراً بيد الدولة فأودت به كما كانت غدرت بفخر الدين من قبله .

الاّ ان النار التي كان اوقدها لم تنطفي بل ظلت كامنة خلل الرماد حتى عاد فأضرمها «ميلوش اوبرينوفيتش» ، وعلى اثر مواقع دامية بينه وبين عساكر الدولة نادى به مجلسُ نواب الصرب « السكوبتشينا » اميراً على البلاد واضطرّ الباب العالي الى الاعتراف به سنة ١٨٣٠

وقد حدثت في صربيا قلاقل داخلية الجأت الامير

ميلوش سنة ١٨٣٩ الى التنازل لابنه «ميلان» فلم يتولّ الحكم الا بضعة اسابيع ثم تنازل للامير «ميشيل» فلم يجلس طويلاً على سرير الامارة واضطرّ الى مغادرة البلاد سنة ١٨٤٢ فانتخبت «السكوبتشينا» مكانه الامير «الكسندر كارا جورجفتش» وهو ابن بطلهم كارا جورج.

وتأمنياً للصرب على استقلالها وضعت الدولُ الامارة الجديدة تحت ضمانتها، في معاهدة باريس سنة ١٨٥٦

ولم تسلم البلاد رغم ذلك من الفتن الداخلية فخلعت «السكوبتشينا» الامير الكسندر واسترجعت الامير «ميلوش» في دسمبر سنة ١٨٥٨ فتوفي بعدها بسنتين (٢٦ ايلول ١٨٦٠) فخلفهُ الامير «ميشيل» وما عتموا ان قتلوه في ١٠ حزيران سنة ١٨٦٠ فخلفهُ ابن عمه الاميرُ «ميلان» وله من العمر اربع عشرة سنة

وقد وقعت على عهده حربٌ ثالثة بين الصرب وتركيا سعياً الى الاستقلال المطلق، سنة ١٨٧٦ ففشلت فيها صربيا. الاّ انه رغم ذلك اعترفت معاهدة سان ستافنو لصربيا

باستقلالها التام وأقرّتها عليه معاهدة برلين ونودي بها مملكة سنة ١٨٨٨

وفي سنة ١٨٨٩ تنازل الملك ميلان لابنه «الكسندر» وعمره ١٢ سنة وهو الذي قُتل مع امرأته الملكة دراجا في ليل ١٠ — ١١ حزيران سنة ١٩٠٩ فجلس بعده على سرير الملك الاميرُ «بطرس كارا جورجفتش» ابن الامير الكسندر حفيد كارا جورج الكبير، وهو مليك الصرب الحالي

فترى مما تقدم انهُ على أثر حركة كارا جورج وميلوش او برونوفيتش، أخذت اوربا بيد الصرب ورغم ما حدث فيها من القلاقل الداخلية تمشت بها من الاستقلال الذاتي الى الاستقلال المطلق حتى اصبحت مملكة عزيزة الجانب لها من الحرمة لدى الدول ما حملهن على عمل المعجزات في سبيل انقاذها في هذه الحرب الكبرى

اليونان

كان « اسكندر ايبسلنتي » لليونان ما كان كارا جورج لصربيا فقد نادى بالثورة سنة ١٨٢١ داعياً قومه الى الجهاد في سبيل الاستقلال

وقد كان خيم ظل الهلال على « الاكروبول » دهراً طويلاً فاسدل ستاراً كثيفاً على أمجادها ، وتوطن الظلم بلاد « سقراط » « واخيل » اجيالاً عديدة فقتل فيها النخوة والمهزة ، فلما دوى صوت ايبسلنتي في ليل رقادها العميق أفاق الناس وهم كأنهم يفيقون من سبات اهل الكهف فلم ينهض منهم الا نفر قليل لم يستطع معهم الى النجاح سبيلاً ، فدارت الدائرة عليه كما دارت من قبله على كارا جورج ووقع في ايدي الاتراك وتوفي في سجنه قبل ان يرى علم الحرية يخفق على بلاده .

الاّ ان صوته لم يمت فملأت الثورةُ بلاد « المورة » وامتدت منها الى « جزر الارخبيل » واخذ الثائرون « اثينا » من يد الاتراك في ٧ نيسان سنة ١٨٢١ ونادت الجمعية الوطنية

في ١٣ كانون الثاني سنة ١٨٢٢ باستقلال البلاد وشكلت حكومةً جعلت على راسها « مفروكرداتو » .

واغرق كاناريس في ليل ١٨ — ١٩ تموز سنة ١٨٢٢ عمارة تركيا في مضيق شيو

ولما رأت الدولة استفحال الثورة في اليونان استنجدت بمحمد علي فأرسل ابنه ابراهيم على جيش كثيف ، فتمكن القائد المصري من استرجاع البلاد وعاد الاتراك فدخلوا اثينا بامرة رشيد باشا

فاهتز الرأي العام في اوربا وتألفت فيها الجمعيات الادبية « صديقة اليونانية » وفيها امثال « دلافين » « وفيكتور هوغو » « والورد بيرون » فاستنفر الشعراء والكتاب دولهم على تركيا فلم تلبث ان تعدّت تلك الحركة الفكرية الى المجالس النيابية والحكومات فهبت فرنسا وانكلترا وروسيا انتصاراً لاثينا ودمرت عماراتهن في « نافارين » العمارة العثمانية المصرية في ٢٠ ت ا سنة ١٨٢٧ ، ونزلت حملة افرنسية الى المر وحاربت مع العسكر اليوناني فأُكرهت

الجيوش التركية المصرية على الانسحاب واخلاء البلاد .
وفي كانون الثاني سنة ١٨٢٨ ألقيت مقاليد السلطة الى الكونت « كابوديستريا » ، وفي ٢٢ اذار سنة ١٨٢٩ أعلن بروتوكول لوندرا اليونان امارةً بالارث مع ضرب جزية عليها للدولة .

وفي معاهدة ادرنه ، ١٤ ايلول من السنة ذاتها ، تعهدت تركيا بقبول بروتوكول لوندرا المذكور ، فلم تكتفِ الدول بذلك بل امضت بروتوكول ثانياً في لوندرا في ٣ شباط سنة ١٨٣٠ وفيه جعلت اليونان مملكةً مستقلة تمام الاستقلال

وواصلت الدول الثلاث عنايتها بالمملكة الجديدة فاهتمت بتنصيب ملك عليها ، فاتفق الرأي على الامير اوتون نجل ملك بافاريا لويس الاول ، فعين ملكاً على اليونان باسم « اوتون الاول » (معاهدة ٣ ايار سنة ١٨٣٢)

وفي سنة ١٨٦٢ قامت حركة في اليونان لمحاربة تركيا ، فعارض فيها الملك « اوتون » فاختلف مع المجلس والشعب فأدى ذلك الى خلعه ، وانتخبت الجمعية الوطنية بدلاً منه

الامير غليوم بن خريستيان التاسع ملك الدنمرك ، ونودي به ملكاً على اليونان باسم الملك « جورج الاول » وهو رأس العائلة المالكة الحالية (معاهدة لوندرا ١٣ تموز سنة ١٨٦٣)

ولم تكتف الدول بان عتقت اليونان من نير تركيا وجعلتها مملكة مستقلة كالممالك الكبرى بل بلغ بها العطف عليها ان تنازلت لها انكلترا عن جزر بحر اليونان وهي كورفو وسيفالوني وكسانتي وسنت مور وايتاك وسريجو وباكسو (معاهدتا لوندرا ١٤ ت ٢ سنة ١٨٦٣ و ٢٩ اذار سنة ١٨٦٤) وهي الجزر التي كانت معاهدة باريس وضعتها تحت حماية انكلترا (٥ تشرين الثاني سنة ١٨١٥) ثم ارغمت الدول تركيا على التنازل لليونان عن مقاطعة تساليا ايضاً

وعلى اثر حرب سنة ١٨٩٧ لم تسمح الدول لتركيا ، رغم انتصارها الحربي التام ، بان تذل اليونان بل الزمتها على قبول صلح حفظ كيان المملكة اليونانية وكرامتها

ولا تزال الدول حتى الساعة ساهرةً على تلك المملكة

الصغيرة تواصلها بعنايتها ، تدرأ عنها الاخطار وتبذل لها ما تشاء من المساعدات ذكراً لاتحاد « سبرتا » وحرمة لعلوم « اثينا »

رومانيا

على أثر الحرب الروسية العثمانية سنة ١٨٢٩ ، احتلت روسيا ولايتي ملدافيا والفلاخ «البغدان والافلاق» تامينا لها على اخذ الغرامة الحربية من تركيا

وكان اهل تينك الولايتين من الرومان يتطلعون الى استقلالهم كسائر الشعوب البلقانية ، فاستبشروا بالروس خيراً وباتوا يأملون ان تحقق روسيا غايتهم الوطنية وتنيلهم الاستقلال

اما روسيا فكانت تسعى الى مصلحتها الخاصة وتغتنم فرصة وجودها في رومانيا حتى تتوصل الى امتلاك البلاد. وتنفيذاً لهذه الخطة باشرت تنظيم الحكومة في الولايتين على

قاعدة دستور سمته « القانون الاساسي » ، وهو فيما نص عليه من الامور الاساسية يقطع اماني الرومان بالاستقلال قطعاً باتاً ، والروس يعتقدون انه يكفي الرومان انعتاقهم من نير الترك ، وان بقاءهم تحت الحكم الروسي سعادة لهم

اما الرومان فلم يكونوا في ذلك على راي روسيا ، فلم يرضوا عن استقلالهم بديلاً . فلم يلبثوا ان ثاروا على روسيا في الولايتين بوقت واحد ، (٧ حزيران ١٨٤٨) فقمعت الثورة في ملدافيا بسهولة اما في الفلاخ فكانت اشد مراساً فان الشعب احاط بسراي الحاكم الروسي جورج بيبسكو ونادوا به رئيساً على الحكومة الثورية وارغموه على توقيع مشروع دستور يلغي القانون الاساسي الذي وضعته روسيا . وكان من اخص رجال الثورة الياد وبلسيسكو ودولياك وتل ماغرون وجولسكي وروزتي واخوان براتيانو .

فاتفق اذ ذاك القيصر والسلطان على الرومان وزحفت جيوشها على الفلاخ فأخضعوها وأعادوا عليها الحكم الروسي (١٨٤٩) فاضطر ابطالُ الثورة ان يلجأوا الى البلاد

الاجنبية حيث واصلوا مساعيهم لدى الحكومات ومع رجال السياسة ففازوا بعطف الكثيرين على قضيتهم اخصهم نابوليون الثالث وهو قد كان يرتاح الى الأخذ بناصر الشعوب الصغيرة، فانه اهتمّ بملدافيا والفلاخ في معاهدة باريس ونال من المؤتمر ان يقرر رفع الحماية الروسية عن الولايتين وان يعترف لهما بامتيازات واسعة

وقد جعلت المعاهدة تلك الامتيازات في ضمانة الدول المشتركة حتى لا تستأثر واحدة منهنّ بشيء فتعيد تمثيل الدور الذي مثلته روسيا يوم استأثرت بالحماية سنة ١٨٢٩.

ولم تلبث الدول أن منعت تركيا من كل تدخل في أمر انتخاب حكام الولايتين (اتفاق باريس ١٩ آب ١٨٥٨) فبادر اذ ذاك الاهالي الى انتخاب الامير «الكسندر جان كوزا» حاكماً عليهما فكان انتخابه تمهيداً لاتحاد الامارتين (١٨٥٩)

وفعلاً ما عتم الاميرُ كوزا أن أعلن اتحاد الامارتين بمنشور تاريخه ٢٠ كانون الاول سنة ١٨٦١، وهو بعد

معاهدة لبنان بستة شهور تقريباً ، وقد جعل لها الامير مجلساً نيابياً واحداً مركزه « بوخارست » فاضطرت تركيا الى الاعتراف بذلك

وعلى اثر حوادث داخلية لا محل لذكرها تنازل الامير كوزا سنة ١٨٦٧ فألقى المجلسُ مقاليد السلطة الى «حكومة موقتة» قوامها جولسكو وهارالمبيك ولاسكار كاتارجي فاهتمّ هؤلاء بايجاد امير خلفاً للامير كوزا ، ففاتحوا امير فلندر اخا ملك بلجيكا فلم يقبل ، وكان نابوليون الثالث لا يزال يوالي اهتمامه برومانيا فأشار على حكومتها ان تعرض الامارة على الامير « شارل هوهنزولرن سيجمارنجن » فعملوا باشارته وقبل الاميرُ ان يتولى العرش وهو رأس العائلة المالكة اليوم

وقد قرّرت اوربا استقلال الامارة الرومانية في معاهدتي سان ستيفانو وبرلين واعترفت بها مملكة بالارث سنة ١٨٨١

فترى من ملخص تاريخ رومانيا السياسي ان الامة كانت تطمع ، لا بخلع نير تركيا فقط ، بل بنيل استقلالها الوطني المطلق وانه رغم التفاوت العظيم بين قوات روسيا

الهائلة وبين عجز رومانيا الضعيفة كانت الغلبة في آخر الامر للحقّ على القوة ، وقد كان للسياسة في الحصول على هذه النتيجة شأن يذكر لا سيما المساعدة التي بذلها نابوليون الثالث للرومان .

بلغاريا

لم تكن بلغاريا اقل حظاً لدى الدول من صربيا واليونان ورومانيا : فقد اضطرمت فيها نار الثورة سنة ١٨٧٥ فلم تفز من الحرب بطائل حتى سيرَّ القيصرُ جحافله الجرارة على تركيا وأرغمها على قبول معاهدة سان ستيفانو ، وفيها تقرّر استقلال بلغاريا الداخلي . ولم تضمن معاهدةُ برلين وحدةَ الامارة البلغارية بل شطرتها شطرين ، كما فعلت اتفاقية سنة ١٨٤٥ في لبنان اذ قسمته الى قائمقاميتين ، وقد جعلت معاهدةُ برلين شمالَ البلقان امارة ذات استقلال داخلي تحت سيادة الدولة ، وعليها امير يصير انتخابه بموافقة

الدول . وفعلاً انتخبت الجمعية الوطنية في « تيرنوفو » اميراً على البلاد فوقع الانتخاب على الامير الكسندر دي باتنبرج[1] سنة ١٨٧٩

وقضت المعاهدة بان تكون الجهة الجنوبية ولاية الروملي وبان يبقى عليها باشا تركي ، مع استقلال نوعي

الاّ ان نزعة البلاد الى الاستقلال المطلق حملتهم على السعي الى توحيد الامارتين كما حصل قبلها في بلاخيا وملدافيا ، وكما جرى في لبنان لدى الغاء القائمقاميتين والرجوع الى وحدة الحكومة ، وما زالت الحركة تختمر في الروملي حتى انفجرت الثورة في عاصمتها فيلبوبولي ونادت لجنة ثورية ، على راسها سترانسكي الباسل ، باتحاد المقاطعتين ، في ايلول سنة ١٨٨٥ ودعت الامير الكسندر اليها فلبى دعوتها وبادر الى فيلبوبولي حيث اعلن الضم فكانت من ثمّ الامارة البلغارية وعليها الامير الكسندر

---

١ ولد في فينون سنة ١٨٥٧ وهو النجل الثالث للبرنس الكسندر دي هس ابن اخت القيصر اسكندر الثاني

ولم يلبث الامير ان اضطر الى التنازل عن العرش لتغيّر القيصر اسكندر الثالث عليه فاستعفى في ٧ ايلول سنة ١٨٨٦ واستلم مقاليد الحكومة الموقتة ستمبولوف وكارافلدف وفوستكوروف، واجتمعت الجمعية الوطنية في تيرنوفو فانتخبت الامير «ولدمار الدنمركي» فلم يقبل (١١ ت ٢ ١٨٨٦)

فاضطر البلغار الى التفتيش على امير غيره وبعد ان طافوا عواصم اوربا وقع الاختيار على الامير «فرديند دي سكس كوبورغوطا» فرضي الامير ان يتولى عرش بلغاريا فاجتمعت الجمعية الوطنية ثانيةً وانتخبته في ٧ تموز ١٨٨٧

فاستلم الامير زمام الحكم ووزيره الاكبر ستمبولوف. ولم تسلم بلغاريا من الاضطرابات التي تحدث عادةً على اثر انقلابات كهذه، فحصل فيها قلاقل وفتن داخلية ادت الى ارتكاب كثير من الجنايات السياسية اخصها قتل ستمبولوف سنة ١٨٩٥

ولم تمنع هذه الاضطرابات بلغاريا من السير في طريقها

الى الرقي والاستقلال المطلق ، فاعترفت الدول بالامير الجديد سنة ١٨٩٧ وظل الامير فرديناند يرقب الفرص وبلغاريا تتحفز للوثوب الى تاج « المملكة » حتى آتته وآتتها الظروف في خريف سنة ١٩٠٨ ، بعد نشر الدستور في تركيا وضم النمسا للبشناق والهرسك ، فباغت الاميرُ العالم بالمناداة في تيرنوفو « بالمملكة البلغارية » وباخذه لقب « قيصر البلغاريين » (٥ ت ١ ١٩٠٨)

فما عتمت ان اعترفت اوربا بالمملكة الصغيرة وبالقيصر الجديد واضطرت تركيا الى الموافقة عليها بمقتضى اتفاق عُقد بينها وبين بلغاريا وقعته في ١٩ نيسان ١٩٠٩

وقد دفعت روسيا مهر استقلال بلغاريا فتنازلت لتركيا عن مبلغ طائل من الغرامة الحربية التي قررتها لها معاهدة سان ستيفانو ، كما سبق لانكلترا ان دفعت مثل هذا المهر لليونان يوم تنازلت لها عن جزر بحر اليونان .

الجبل الاسود

ان الدول يوم قررت مصير البلقان في معاهدة برلين، لم تنس ان تضمن لتلك البقعة الصغيرة الجبلية حقوقها فاعترفت باستقلال «الجبل الاسود» الذاتي ثم اعترفت به مملكة ذات استقلال تام في آب ١٩١٠ . والجبل الاسود لا يوازي نصف لبنان عدداً .

فترى مما تقدم ان اوربا كانت تتسابق الى عون تلك الممالك البلقانية وتكوينها وتوسيعها كانها الام الرؤوم تتعهد ابناءها بالمحبة والحنان، وليس بكثير على شهامتها ان تسدي الى لبنان مثل اليد التي اسدتها منةً وكرماً الى البلقان

لبنان

ان ملخص تاريخ لبنان السياسي هو ان الحركة الوطنية سعياً الى خلع السيادة العثمانية، بدأت فيه منذ اواخر الجيل

السادس عشر فتأصلت وظهرت في اوائل الجيل السابع عشر وما زالت تملأ حياة قومه وتريق دماءهم زهاء قرنين ونصف قرن ، ولبنان لا يزال محروماً من نيل غايته الوطنية

فقد ثار فخر الدين الكبير على الدولة في بدء القرن السابع عشر وحاربها اكثر من ٣٥ سنة ، واخيراً خانه الحظ كما خان كارا جورج بعده بنحو مئة وخمسين سنة . ولم ينفك لبنان بعدَه عن قتال الدولة حتى حروبه الرائعة معها على عهد الامير بشير الكبير زهاء نصف قرن

ولم يكن حظ هذا الامير الشهابي اسعد من حظ سلفه الامير المعني .

وقد لاح في منتصف القرن التاسع عشر ان اوربا تريد ان تعمل للبنان ما عملته للممالك البلقانية فبدأت بالاعتراف لهُ بالاستقلال الداخلي الا انها رغم ثورة يوسف بك كرم اولاً وثانياً ورغم جهاد اللبنانيين المتواصل لم تقدم الدول خطاها ولم تنتقل بلبنان كما انتقلت بالصرب واليونان والرومان والبلغار والجبل الاسود من الاستقلال

الداخلي الى الاستقلال المطلق، ولعل السياسة الدولية لم تساعدها يومئذٍ على اجراء العدل للبنان كما أجرته للبلقان، فلا شك أنها تنصفه اليوم وتُعيضه مما فات فتحقق له معاهدة الصلح الآتية ما قصرت عنه معاهدة سنة ١٨٦١ فيمنح استقلالاً يريحه الى الابد اسوةً له بتلك الممالك الصغيرة التي انشأتها اوربا، انصافاً للشعوب الضعيفة وختاماً لعهد الاستعباد

وفي الفصول الآتية بيان لتاريخ لبنان السياسي منذ الفتح التركي لسوريا حتى سنة ١٨٦٠

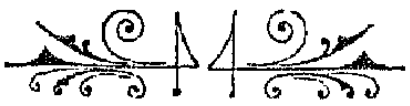

الفصل الاول

الأمير فخر الدين المعني الاول والامير قرقماس

فخر الدين الأول

يوم فتح السلطان سليم الاول سوريا (١٥١٦) كان كبيرُ امراء لبنان الامير فخر الدين المعني الاول " وهو الرابع عشر من امراء بني معن واولهم الامير معن الايوبي أتى الى لبنان سنة ١١٢٠ وضرب خيامهُ في بلاد الشوف وهي يومئذٍ لاتكاد تكون مأهولة بالسكان «ثم ترك الخيام وبنى المنازل وصار يحثّ اصحابه وقومه على العمار حتى كثر السكان .»[١]

---

١ الشدياق : ص ٢٤٨

وتعاقب المعنيون على حكم الشوف ، بينما الامراء والمقدمون والمشايخ يحكمون في الغرب او الشمال ، حتى الفتح التركي

وكان فخر الدين رجلاً شجاعاً فصيح اللسان سهل الخاطر. ولما عقد النصرُ للسلطان سليم ، نزل الاميرُ للسلام عليه في دمشق والقى بين يديه دعاءً شائقاً فأحبه السلطان لاجل فصاحته وجسارته فقرّبه اليه وأقرّه على امارته «وجعله مقدماً على الجميع»[1]. ولم يألُ فخر الدين جهداً في تعمير البلاد وتحصينها «فبنى بنايات عظيمة وقلاعاً حصينة ومدّ سلطانه من حدود يافا الى طرابلس»[2] ولم ينل بسوء حتى وافتهُ منيتهُ سنة ١٥٤٤ فخلفهُ ابنه الامير قرقماس

---

١ الشدياق: ص ٢٥١

٢ الامير حيدر احمد الشهابي: الغرر الحسان ص ٦١٢

الامير قرقماس

وكان ان عظمَ بطشُ السلاطين العثمانيين واشتدت وطأتهم في سوريا فباتوا ينظرون بعين الكره الى لبنان وما لهُ من الامتيازات فوطنوا النفس على اغتنام اول فرصة لدخول الجبل .

وما لبثت ان سنحت تلك الفرصة سنة ١٥٨٤ على اثر سرقة اموال الدولة الاميرية (الخزينة) في جون عكار فأُلقيت التهمة فيها على اللبنانيين فصدر أمر الباب العالي بجمع العساكر والزحف على لبنان فجرَّد ابراهيم باشا جيشاً لجباً دَهَم به الجبل على حين غرّة ، فلم يوفق الاميرُ قرقماس الى ردّ الاعداء عن البلاد فاضطر الى الالتجاء الى مغارة في بلاد الشوف تحت جزين فاختفى هناك مدة ثم حدث له مرضٌ فمات تاركاً ولدين صغيرين : فخر الدين ويونس ، وامهما الست نسب .

الفصل الثاني

الامير فخر الدين الثاني الكبير[١]

(١٥٨٢—١٦٣٥)

شعر اللبنانيون على اثر تلك الحادثة ان الدولة اخذت تضيق عليهم الخناق وان لا قبل لهم بصد اطماعها بهم ما داموا متفرقين غير متضامنين فسعى عقلاؤهم الى توحيد الكلمة في البلاد امام ذلك الخطر الداهم فساعدهم على ادراك غايتهم

---

١ الدويهي ص ١٨٣ ومايليها
الشدياق ص ٣٥٢ ومايليها
الامير حيدر الشهابي ص ٦١٨ ومايليها
شرشل : جبل لبنان ج ٢ ص ٣٣٨ ومايليها .. الخ

مقامُ المعنيين في لبنان وتربية احدهم واعظمهم فخر الدين الكبير في كسروان قلب البلاد المارونية :

كان للمعنيين كرامة جلى في لبنان لاسبابٍ عديدة منها ترفعهم عن التعصب الديني واحلالهم المصلحة اللبنانية فوق كل اعتبارات اخرى حتى ان مدبّر الامير قرقماس كان الحاج كيوان الديراني الماروني. ومنها اقامة المعنيين في لبنان وتأصلهم فيه من سنة ١١٢٠ حتى اصبحوا وطنيين صميمين بعد ان مضى عليهم في لبنان ما ينيف على الاربعمائة سنة

اما تربية فخر الدين في كسروان فحكايتها : انه لما هلك الاميرُ قرقماس، سعى ابراهيم باشا الى الايقاع بولديه الاميرين الصغيرين فخر الدين ويونس، فلجأت بهما والدتهما الست نسب الى مدبّر زوجها الحاج كيوان وطلبت منهُ ان يخبئهما عند أحد الامناء في كسروان ونهض بهما ليلاً ومعهما والدتهما الى كسروان قاصداً فيه رجلاً من وجهاء الموارنة المخلصين هو الشيخ ابو صقر ابرهيم الخازن . فبلغوا الى

بلونه مقرّ الشيخ ابي صقر وقصّ عليه الحاج كيوان الامر، فأكرم ابو صقر وفادتهم وحضن الاميرين ورباهما احسن تربية ولم يدر بهما احد.

وقد ترعرع الاميران في حضن ابي صقر على المبادي القويمة والاخلاق الكبيرة والوطنية الصحيحة فشبا وفي صدرهما كرهُ الدولة قاتلة ابيهما والعاملة على اذلال البلاد، فكانت كل حياتهما سلسلة حروب مع الدولة اخذاً بثار والدهما من جهة، ودفاعاً عن حقوق الوطن من جهة اخرى. وقد كانت اقامتهما عند الشيخ ابي صقر، بين الموارنة وفي صميم البلاد المارونية، اكبر عاملٍ على نزع كل عواطف التعصب الديني من نفسيهما الكريمة فلم يدركا سن الرشد الا وهما على جانب عظيم من سموّ الاخلاق والوطنية الصحيحة مما ظهرت نتائجه الطيبة في كل أدوار حياتهما. واول عمل أتياه، بعد ان بلغا اشدهما وتولى فخر الدين امارة الشوف، انهما دعوا الشيخ ابا صقر ابرهيم اليهما وبالغا باكرامه والحفاوة به ذكراً لمعروفه معهما وصدق تربيته لهما. وقد جعله

فخر الدين مدبراً له وأقام اخاه رباحاً الخازن دهقاناً

ولم يلبث ان توفي ابو صقر ابرهيم ، فأقام فخر الدين مقامه ولده الشيخ ابا نادر مدبراً له وجعل فيما بعد الشيخ نوفل ابن الشيخ ابي نادر مدبراً لاولاده ، ولم يكتف الامير باظهار ميله الى بيت ابي صقر بل تعدّاه الى غيره من وجهاء الموارنة فاخذ في خدمته الخاصة الشيخ ابا ضاهر حبيش ، توثيقاً لعرى الاتحاد بينه وبين النصارى

وكان الامير رحب الصدر سامي المدارك فلم يستبدّ بالامر في لبنان بل جعل الحكم فيه شورى على نوع ما ، بمن اقامهم حواليه من اعيان البلاد واقطابها فكانوا مجلس شوراه ، لم يتخلّ عنهم ولم يتخلوا عنه حتى آخر ايامه

وقد كانت كل تلك الظروف عاملاً كبيراً في تمكين الروح الوطنية في صدور اللبنانيين فتوثقت عرى المودّة بين اهل الشمال واهل الجنوب وجمعت بين وجوه البلاد على اختلاف طوائفهم فكان من اختلاط اللبنانيين ببعضهم ومن اتفاق مصالحهم امام الخطر التركي ، انهم باتوا يشعرون

أنهم «شعب واحد» تجمعهم «لغة واحدة» «وبلاد واحدة» «ومصلحة واحدة»، فاتحدوا وتضافروا، فتكونت من ثمّ «القومية اللبنانية» وحلت محلّ «العنصرية الطائفية».

وحدث في البلاد ميلٌ عام الى توحيد الحكم، فتم ذلك على يد فخر الدين الثاني فهو الذي وحد «الامارة اللبنانية» فشكل الحكومة على قاعدة القومية والكفاءة لا على اساس الدين والمحسوبية، وجعل غايته كل مدة حكمه توسيع حدود البلاد ونزع سيادة الدولة عن لبنان فحاربها في سبيل ادراك تلك الغاية حروباً طويلة وعقد محالفات قوية في اوربا، وأورث تلك الغاية لخلفائه حتى أصبحت «الغاية الوطنية» الكبرى للبنان واللبنانيين

ونظراً لمقام فخر الدين في البلاد ومحبة الجميع له واحترامهم اياه فضلاً عن اتفاق المصلحة العامة، لم يلق الاميرُ صعوبة في توحيد الامارة، فلم يلبث ان اعترف الامراء والمقدمون والمشايخ بحكمه، وهم انما يعترفون لأميرٍ وطني لبناني، لا لأجنبيٍّ عنهم.

ثم عمد الى العمل على توسيع الامارة وعلى قطع كل علاقة كانت تربطه بحكومة الاستانة فأخذ يعدّ عدته للامر وهو لا يترك في اعماله شيئاً للتقادير ولا يعتمد في اموره على الحظ وحسن الصدف، فوضع لكلّ عمل خطته مما لا يقلّ في شيء عن ادقّ ما وضعه اكبر الفاتحين وامهر السياسيين :

علم ان القوة محور كل عمل فنظم جيشاً لبنانياً يضارع أرقى جيوش ذلك العهد عدةً وعدداً ونظاماً، وادرك ان حياة الجيش والملك انما هي المال فعهد الى الاكفاء من رجاله بتنظيم مالية البلاد فوضعوها على احسن القواعد ورتبوها على ادق حساب حتى كثرت موارد الخزينة واينعت ثروة الامة، ولم يفته ان اساس الملك هو العدل فاجراه في البلاد على يد رجالٍ أحسنَ اختيارهم فكانوا عند ثقته بهم .

ولما استوثق من مناعة جيشه وثبات ماليته ابرز نواياه الى حيز العمل فزحف بجيشه اللبناني على الولايات المجاورة فاكتسحها واستولى على بلاد حوران وعجلون

وما زال يتنقل من بلد الى بلد غازيا فاتحا حتى دق ارتاد خيامه على ابواب دمشق

وما لبث ان تطلعت نفسه الى أبعد من ذلك فطمح الى الاستانة قاعدة السلطنة كما طمح اليها معاوية من قبله فاخذ يتأهب لتحقيق ذلك الحلم الرائع الذي تقاصر عنه معاوية وحققه محمد الثاني

ومن المأثور عنه في ذلك قوله: «انما السلطنة نقل تخم فكلما تملكنا بلاداً نتقوى برجالها واموالها وننتقل الى غيرها.»[1]

*

وكانت الدولة في تلك الاثناء قد أوجست شراً من أمير لبنان ورأت ان الأمر قد التوى عليها فيه: فبدلاً من ان تلحق الجبل بالولايات أخذ الجبلُ يمدّ سلطانه على السهل ويزداد نفوذ فخر الدين في سوريا ازدياداً هائلا

فلم تصبر الدولة على ذلك؟ وعلى عرش السلطنة

---

١ انشدياق: ص ٣٢٨

يومئذٍ السلطان أحمد الاول ، بل عبأت الجيوش وجهزتها بما تحتاج اليه من الميرة والذخيرة « وارسلت على أمير لبنان ألفي رجل من انكشارية اسطنبول وخمسين سنجقاً و ١٤ بكلربكياً من ديار بكر واناطولية وقرمان والرها وطرابزون وحلب وطرابلس والشام وغيرها من الاماكن ومعهم خمسون الف مقاتل وعليهم الحافظ أحمد باشا قائد عام .. »[١]

فلما وقف الاميرُ على حقيقة الحال لم يشأ ان يقامر بقواته ويخاطر بامارته فيحارب الدولة وحده ، ولها ما لها من العدّة والعدد ، بل ارتأى ان يترك الزوبعة تمرّ فلا يتصدى لها بل يسافر الى اوربا حيث كان بدأ في مخابرات مع دولها لايجاد محالفة على الدولة ، حتى اذا تمّ له ما اراد عاد الى البلاد وحارب الدولة مستنداً الى جيشه اللبناني والى حلفائه الاوربيين[٢]

---

١ الدويهي : ص ١٩٠

٢ كان في ذلك العهد لدوقية « تسكانة » مقام رفيع بين حكومات ايطاليا واوربا ، بعد حكومة البندقية . وكان على تلك الدوقية اسرة « مدسيس » المشهورة ودوقها الاكبر سنة ١٦٠٦ « فرديند الاول » . وهو قد بدأ المخابرات

سفر فخر الدين الى ايطاليا سنة ١٦١٢

لما عزم فخر الدين على السفر اسرَّ نواياه الى اخيه الامير يونس وفوّض اليه امرَ الحكم واوصاهُ ان يكون مستعدّاً للحوادث واشار عليه بالانتقال من بعقلين الى دير القمر والاقامة فيها فاتفق الاميران على ما يلزم وودّع الاميرُ يونس اخاه في صيدا وانتقل بمن معه الى دير القمر عملاً بأوامر اخيه وكان ذلك اول انتقالهم اليها .

وجرياً على عادته من عدم الاستشار بالرأي طلب فخر الدين من مدبرهِ الحاج كيوان ان يصحبهُ في سفرتهِ وفيها ما فيها من مخبآت الاقدار فامتثل الحاج كيوان امرهُ واهتم بتجهيز ما يلزم للسفر من خدم ومال ومراكب. وفي ١٠ محرم سنة ١٦١٢ أقلع الامير من صيدا على مركب افرنسي تحدو به الآمال الكبيرة وهو اذ ذاك في عنفوان شبابه غير بالغ الثلاثين ربيعاً.. وقد سافر في مركبه خمسون

مع فخر الدين بواسطة السكافلير « ليونتشيني » وعقد معه محالفة سنة ١٦٠٨ ثم توفي فرديفند الاول فخلفه عليها الدوق « كوسموس الثاني » .

رجلاً من حاشيته ونزل الحاج كيوان مع الجواري في مركب آخر

وبعد مضي ثلاث وخمسين يوماً وصل الامير الى ثغر «ليفورنا» في ايطاليا فلما رسا مركبه سأل اهلُ البلدة عن اقادم عليهم فأرسل الامير يقول «انا فخر الدين المعني حاكم جبل لبنان»[١]. فأحسنت الحكومة وفادته، وما بلغ خبرُ مقدمه دوقَ توسكانه الكبير «كوسمس الثاني» حتى ارسل وفداً لاستقباله ودعاه اليه في مدينة «بيزا»[٢]. ولما وصل الاميرُ اليها بالغ الدوقُ في الحفاوة به فأخلى له قصراً من قصوره الفخمة وجعله بما فيه من الرياش والخدم تحت تصرّف الامير فنزل فيه فخر الدين واخذ نبلاء البلاد يتقاطرون للسلام عليه

وسرى حديث الامير في ايطاليا فارسل ملك «نابولي» يدعوه الى زيارته فقبل الاميرُ الدعوة وسار الى نابولي، وكان قد سبقهُ اليها دوق توسكانه لاكرامه والاحتفاء به.

---

١ شرشل: ج ٢ ص ٣٥٢

٢ ليفورنا ثغر في شمال ايطاليا على البحر المتوسط في مقاطعة توسكانه. وبيزا ثغر ايطالي ايضاً يبعد عن الاول ٤٠ كيلومتر تقريباً

وقد بات فخر الدين في نابولي موضوع اعجاب اشراف ايطاليا واجلالهم فكانوا يتسابقون الى دعوته واقامة الحفلات الشائقة له . ولم يغرب عن الخاصة هنالك ان لذلك الامير اللبناني غاية سياسية يسعى الى تحقيقها . وكان اول من فاوضهُ الاميرُ في امر المحالفة على تركيا الدوق كوسموس الثاني . وكانت الدولة العثمانية في ذلك العهد قوية الشوكة مرهوبة الجانب فلم يسع الدوق القبول فوراً وهو لا يعرف ما لفخر الدين من القوّة في لبنان ، فرأى ان يحتاط للامر فيرسل اولاً بعثةً الى الجبل تدرس الحال ثم تعود اليه بتقرير واف يبني عليه الدوقُ حكمهُ

فوافق فخر الدين على راي الدوق ، فأُعدّت البعثة وجهز لها مركب ، وكتب الامير الى اخيه وذويه والى اعيان البلاد ينبئهم بما تم له في ايطاليا ويطلعهم على غاية البعثة ويحضهم على حفظ القلاع التي هم فيها ويستحثّ همتهم ويوصيهم بالتيقظ والاستعداد . وكلف الاميرُ من تابعيه ابنَ العيسوق ومحمد بن علي كاوز بالسفر مع البعثة لايصال تلك

الرسائل الا اصحابها في البلاد

فسافرت البعثة وفيها كثيرون من المهندسين الفلورنتيين. ولما بلغوا سواحل لبنان نزلوا الى البر قرب صيدا، وصعد القبطان ورجال البعثة وابن العيسوق ومحمد كاور الى دير القمر حيث مقرّ الامير يونس . ولما رآهم الامير يونس فرح فرحاً عظيماً، واعطوه المكاتيب التي له ولاعيان البلاد. وقد اكرم الاميرُ يونس ووالدته الست نسب ضيوفهم غاية الاكرام وسهلوا لرجال البعثة اتمام مهمتهم، فطافوا انحاء لبنان يبحثون وينقبون ليتحققوا بانفسهم ما كان فيه من قوات وحصون واموال ووسائل دفاع من كل نوع

وفي الوقت ذاته أرسل الامير يونس الى اعيان البلاد مكاتيبهم فحضرت الاجوبة من الجميع وفيها بيان وافٍ عن احوال البلاد واخلاص اهلها للامير فخر الدين، الاّ واحداً منهم لم يجب بل ارسل الى الامير يونس يقول «ان اخاه مغضوبٌ الدولة فلا نقدر ان نجيبه» .[1]

---

١ الغرر ص ٦٣٦

وبعد ان اتمت البعثة عملها واستلم رسولا فخر الدين تلك الاجوبة ، عاد الجميع الى ايطاليا وسافر معهم اليها الحاق بالامير ، الشيخ خاطر الخازن[1] مع جماعةٍ من قومه ، ويزبك بن العفيف من اعيان الشوف . فعلم الاميرُ منهم ومن الاجوبة التي أُرسلت له كلَّ ما يهمه عن احوال البلاد ، وقدّمت البعثة الى الدوق تقريراً ضافياً بما رأوا وسمعوا وخبروا فجاء تقريرهم اكبر مؤيّد لفخر الدين

فلما وثق كوسموس الثاني ان في لبنان قوة لايستهان بها وان البلاد كلها يد واحدة مع الامير رضي بمحالفته ووعده بالمساعدة على انشاء محالفة اوربية على تركيا تكون على شكل الصليبية ، يدخل فيها البابا وملك اسبانيا فيليب الثالث

فارتاح فخر الدين الى ذلك كل الارتياح ، ولم تغفله بوادر النجاح في ايطاليا عن وجوب مداومة اتصاله بلبنان . فارسل اليه وفداً ثانياً برئاسة الشيخ يزبك بن العفيف ومعه كثير من المال والهدايا توقعاً للطوارئ والحوادث ..

---

١ هو اخو الشيخ ابي نادر (الشدياق ص ٨٢)

وكان في تلك الاثناء قد تنحّى صيتُ فخر الدين ايطاليا فطبقت شهرته آفاق اوربا فخطب ماركها ودّه، فارسل اليه ملك فرنسا «لويس الثالث عشر»[١] وفداً يدعوه الى زيارة البلاط الملكي في باريس فاعتذر الاميرُ عن تلبية الدعوة مراعاةً لظروف واعتبارات سياسية، ولعلّ السبب في امتناعه ما كان بين ملوك فرنسا وبين سلاطين تركيا من علاقات المودّة القديمة مما لم يكن يتفق مع مقاصد فخر الدين

ثم جاءه وفدٌ آخر من ملك اسبانيا «فيليب الثالث»[٢] يحمل اليه كتاباً ملكياً يلحّ فيه على الامير بزيارته في مدريد. وقد روى صاحبُ الغرر الحسان ان الامير قبل دعوة الملك وسافر الى اسبانيا وبصحبته حاكم مسينا، فلما وصل الامير خرج الوزراء لملاقاته ودخل على الملك هو وحاكم مسينا فترحب بهما واكرمَ الاميرَ اكراماً زائداً وأخلى لهُ داراً

---

١ لويس الثالث عشر ابن الملك هنري الرابع والملكة ماري دي مدسيس ولد سنة ١٦٠١ وملك من سنة ١٦١٠ الى ١٦٤٣

٢ ملك فيليب الثالث من سنة ١٥٩٨ الى ١٦٢١

عظيمة وظلّ الاميرُ في ضيافة الملك مدة غير وجيزة اطلعهُ فيها على احواله واخبره بما كان بينه وبين الدولة من العداء، فلقي من الملك كل رعاية وانعطاف [١]

ولما رأى فخرُ الدين ان اموره جارية على ما يشتهي، احبَّ ان يرجع موقتاً الى لبنان ليقف بنفسه على حقيقة الحال قبل ان يغادر اوربا نهائياً. فاستأذن من ملك اسبانيا وركب البحر الى ليفورنا فقصَّ على صديقه الغراندوق كلما حصل له واخبرهُ انه عزم على السفر لتفقد احوال لبنان بنفسه ثم يعود. فوافق الغراندوق على رايه وركب الامير البحر ومعه الشيخ خاطر الخازن. وقد جاء في الغرر الحسان ما روايته ملخصاً «فلما وصلت المراكب الى ما بين صور وناقورة عكا نزل الشيخ خاطر وتوجه الى دير القمر ليعلم الامير يونس فيلاقوا الامير الى الدمور. فلما بلغ الامير يونس خبر وصول اخيه فرح فرحاً عظيما وصار في جميع الشوف فرحٌ عظيم. ثم ان جميع اهالي البلاد توجهوا

---

١ الغرر الحسان ص ٦٤١

برفقة الامير يونس الى الدامور، وكان الامير فخر الدين اعطى الشيخ خاطر ثلاثة اسهم وقال له متى حضر اخي الى الدامور ورايت المراكب اقبلت فارم سهماً في الجو بعد ما تشعلها. ولما وصلوا الى الدامور واقبلت المراكب رمى الاسهم فتحقق الامير انهم حضروا للملتقاه، فقربت المراكب الى البرّ ورمت المراسي وابتدأت القوارب تأتي الى البرّ وتأخذ الرجال ليسلموا على الامير ويرجعوا، وبقي الامير يونس عند اخيه حتى انتهوا واعلمه بكل ما توقع في غيابه. ثم طلب منه ان ينزل الى البر لكي تراه الناس لان اكثر الاهالي حضروا الى ملتقاه من كسروان الى الشوف فنزل الى البرّ وبقي فيه ثلاث ساعات ونظره الجميع وسلموا عليه. ثم رجع الى المركب ورفعت المراكب مراسيها من الدامور واقلعت..»[1]

ان في تهافت الناس على ملقى الامير فخر الدين رغم عداوته مع الدولة، لبرهاناً ساطعاً على ما كان له من

---

١ الغرر الحسان ص ٦٤٢ (يذكر صاحب الغرر الشيخ خطار والحقيقة خاطر: عن الشدياق ص ٨١ و ٨٣)

الكرامة والاحترام والمحبة في قلوب اللبنانيين، بل يدل على تمكن الروح الوطنية من نفوسهم وتقديرهم مسعى اميرهم قدره في سبيل البلاد

وبعد ان وقف فخر الدين بنفسه على احوال البلاد واخذ عنها الخبر اليقين وطمأنَ ذويه واعوانه وشدّد عزائمهم واعدّهم لاستقبال الحوادث القريبة لدى رجوعه في اقرب فرصة، ودّعهم ورجع الى ايطاليا. وقد مرّت المراكب في طريقها على مالطه، وكانت اخبار فخر الدين قد شاعت وذاعت في سائر الاقطار، فلما علم اهل الجزيرة بقدوم الامير خرجوا الى لقائه وفي مقدمتهم حاكم الجزيرة الاستاذ الاكبر (جران مايسترو) فاستقبلوه بموكب عظيم وأُطلقت له المدافع

وبعد ثلاثة ايام ودّع الامير الاستاذَ الاكبر واهلَ مالطه ونزل الى البحر فواصل سيره الى ليفورنا ورجع الى الغراندوق فقص عليه ماراّه في رحلته وهي قد دامت سبعة اشهر .

في تلك الاثناء حدثت في الاستانة حوادث كانت على ما يوافق مصلحة فخر الدين فمات السلطان احمد الاول مسير الحملة على الامير سنة ١٦١٢ ، وحدث بعد وفاته اختلاف على ولاية العهد فخلف السلطانَ احمدَ اخوهُ السلطانُ مصطفى ، وما لبث أن ثار عليه العسكر فأسقطهُ واقام مكانه ابنَ اخيه عثمان المعروف باسم السلطان عثمان الثاني ، وهو فتى في الثامنة عشرة من عمره. وكانت الدولة يومئذٍ في مشاكل وحروب مع ممالك بولونيا وروسيا وامارات البلقان

واكبر ظرفٍ موافق لفخر الدين كان عزل الحافظ احمد باشا عدوّه الشخصي ، فلما تغير الحافظ ارسلت الست نسب تخبر ولدها الامير فخر الدين بما جرى وتطلب رجوعه

عودة فخر الدين

وكان فخر الدين قد أتمَّ مهمتهُ في اوربا فاستأذنَ الغراندوق بالرجوع وودعهُ وركب البحر من نابولي واقلع منها في ٢٧ رمضان سنة ١٦١٧ ، « فبلغ مينا عكا في ٩ شوال من السنة ذاتها وارسل مملوكه سروراً بكتبٍ الى ولده

الامير علي يعلمهُ بقدومه . وكان في ذلك الوقت عند الامير علي ، الاميرُ ناصر الدين التنوخي ومقدمو بيت ابي اللمع واكابرُ الشوف

«فلما قرأ الامير علي كتاب ابيه ماعادت تسعه الدنيا من الفرح وجمع الجميع واعطاهم كتابَ والدهِ بخطهِ وختمهِ وأمر بالافراح فكان يوماً عظيماً .. وبادر الى ملاقاة ابيه. وبعد ذلك حضر اخوه الامير يونس وهم لا يتمالكون من الفرح والسرور

«وما ذاعت في البلاد اخبار عودة الامير فخر الدين حتى تقاطرت الناس الى ملاقاتهِ افواجاً وهرع اليه الامراء والمقدمون والمشايخ من كل انحاء لبنان اخصهم مشايخ الشوف ومشايخ بلاد صفد وبلاد بشاره وبلاد الشقيف وبلاد صيدا والامير علي الشهابي وولداه الامير محمد والامير قاسم. وقدم الامير احمد يونس الحرفوش وقدّم له خيلاً . وارسل الامير احمد الشهابي ولدَه الامير سليمان وقدم له خيلاً . وارسل الامير أحمد طربيه مدبرَه وقدم له خيلاً . وارسل

الامير احمد فانضم مدبره وقدم له خيلاً. فقبل الامير الخيل وخلع على مقدميها ثم سار في البلاد سير الفاتح الظافر بين الهزيج والاناشيد واطلاق البنادق ..»[١]

ولما استقر المقام بفخر الدين اخذ ينظم الجيش والمالية وامور البلاد على النمط الذي خبره في اوربا واضعاً نصب عينه تحقيق الغاية التي من اجلها غادر البلاد وانشأ المحالفات. ولم يظهر الامير عداءه للدولة بل فضل ان يرقب الفرص فيحارب الولاة الواحد بعد الآخر حتى يأمن شرّ اتفاقهم وتضافرهم عليه:

وقد بدأ أعماله بحرب آل سيفا لانهم كانوا يومئذٍ ذوي حول وطول في لبنان واكبر عثرة في سبيل توحيد الامارة اللبنانية. فعزم على قهر كبيرهم يوسف باشا سيفا. وقد احتاط للأمر بأن استوثق اولاً من رضى عمر باشا الكتبجي والي طرابلس ومساعدته، فكتب اليه يشكر من اعمال

---

١ ملخصاً عن الدويهي ص ١٩٥ والغرر ٦٥٩ والشدياق ٢٧٨ وشرشل ج ٢ ص ٣٦٢

يوسف باشا سيفا . فأجابه الوالي اذا شئت ان تحاربه فانا اكون مساعداً لك

فأخذ فخر الدين يعدّ المعدات ويهيء الرجال مستنفراً على ابن سيفا امراء البلاد ومشايخها حتى يطبقوا عليه من كل جهة ويسدّوا في وجهه سبل النجاة : فقام من صيدا الى بيروت وكتب الى الامير علي الشهابي يستنهضه ، وكتب الى مدبرّه الشيخ ابي نادر الخازن ان يرسل رجالاً يمسكون جسر نهر ابرهيم على الذاهبين الى الجهة الشمالية لئلاّ يدري به يوسف باشا ، واستدعى اليه رجالَ الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان ، وكتب الى ولده الامير علي ان يجمع رجال بلاد صفد وبلاد بشاره والشقيف وصيدا ويذهب بهم الى غزير ، وكتب الى الامير علي الشهابي ان يوافي ولده الامير عليا الى غزير ، وكتب الى الامير يونس الحرفوش ان يضبط ما لآل سيفا من المواشي والغلال في القيرانية والهرمل . ثم نهض من بيروت بمن اجتمع عنده الى نهر ابرهيم ثم الى جبيل ومنها الى اميون ثم الى قلعة

بخعون في الضنيه وحينئذٍ توجه نفر من عسكره من اهل دير القمر للكبس ، فصادفوا الامير محمد بن حسين بن يوسف باشا مع جماعته وهو فتى في الخامسة من عمره . فلما رات جماعة الامير الصغير ذلك العسكر تخلوا عن اميرهم هاربين فقبض عليه اهل دير القمر واخذوه الى الامير فخر الدين

وكان فخر الدين كبير النفس يشهد تاريخه بنبالة اخلاقه وسموّ عواطفه ، فلما رأى الاسير الفتى رأفَ به وبوالدته فارسل يخبرها بسلامة ابنها وانه في رعايته لتطمئنّ اليه

وفي غضون ذلك كان نفذَ الامراء أوامرَ فخر الدين فقدم الى غزير ابنه الامير علي بعسكره ومعه الامير علي الشهابي بعسكره ايضاً

« اما فخر الدين فنهض بعسكره من قلعة بخعون الى قرية تولا ، ولما بلغ يوسف باشا قدومه أرسل حريمه ومثمناته الخفيفة قدامه الى قلعة الحصن « حصن الاكراد » في طريقٍ ، ونهض برجاله منهزماً الى القلعة ذاتها في طريق اخرى . فطارده فخر الدين بثلثماية فارس من عسكره وبينما هو مجدٌ

في لحاقه أدركه الليل فظهرت من بعيد عشرة مشاعل خارجة من عكار على طريق الحصن ، فأسرع في أثرهم حاسباً انهم ابن سيفا ورجاله ، فاذاهم فريق النساء والاحمال ، فأبت عليه مروءته الا ان يحميهم من كل أذى فاستحلف فرسانه ألاّ يمدّوا ايديهم الى النساء ويكتفوا بأخذ الاحمال .

اما يوسف باشا فلما سمع الضوضاء ، أطفأ مشاعيله وأسرع بعسكره الى قلعة الحصن وهو لم يدافع عن حريمه وماله

وكان في تلك الاثناء قد دخل عسكر الامير عكار وغنم ما فيها ، اما الامير فبلغ قلعة الحصن قبل وصول عسكره من عكار . فلما أقبل عليها وجد جميع امراء آل سيفا متهيئين برجالهم للقتال وعندهم بنو الصوّاف مقدمو المتن برجالهم. فلم يحجم فخر الدين بل أقدم صائحاً بقومه : القتال ، وزأر كالأسد وشنّ الغارة وانقضّ هو وفرسانه على القوم فانهزم يوسف باشا بقومه متسابقين الى تلك القلعة للتحصن فيها.» [١]

---

١ الشدياق ص ٢٨٢ ومايليها

وكان فخر الدين عارفاً بفنون القتال يباشره بنفسه ويعمد فيه الى اساليب فنية محكمة، طالما استعملت في هذه الحرب، كحفر الخنادق واقامة المتاريس من اكياس الرمل والتراب .

ولما أيقن ابن سيفا انه مقهور لامحالة ارسل كنته[1] ومعها نساء ليشفعن به لدى فخر الدين : « وبينما كان الامير في خيمته واذا ابنة داخلة اليه ومعها نساء فالتمست منه العفو عن آل سيفا »

وقد علمت من اخلاق فخر الدين انه كان كبير النفس لا يلين لقوي ولا يصلب لضعيف فأحسن استقبال ذلك الوفد من السيدات وطيب قلب كنة يوسف باشا ووعدها باجابة سؤلها

وبعد ان استظهر فخر الدين على يوسف باشا سيفا وكسر شوكته ، مال على غيره من الولاة وزعماء العشائر :

---

١ هي زوجة حسن بن يوسف باشا سيفا وبنت فخر الدين (الشدياق ص ١٦٤ و ٣١٣ ومايليها)

فأعلن الحرب على الامير أحمد طربيه وظفر به ، ثم حارب مصطفى باشا وغلبه في واقعة المجدل . وكان اثناء سيره في البلاد يشيد القلاع في طريقه جاعلاً له فيها قواعد حصينة يستند اليها في المواقع ، فبعد ان أطاعه في وادي التيم الاميرُ احمد الشهابي ، وفي حاصبيا الاميرُ علي الشهابي ، سار الى بانياس فرمم قلعتها ، والى صرخد فبنى فيها قلعة ، ثم نهض الى بعلبك ورمم قلعتها ، ثم الى قبّ الياس وبنى فيها قلعة.

وحدث في ذلك العهد غلاءٌ في دمشق فارسل اهلُ المدينة يشكون حالهم الى الامير ، فارسل اليهم حالاً الفي حمل جمل قمحاً ، وفي اليوم الثاني الفي حمل ايضاً . ثم جمع جمالَ حوران ودوابها وأمر اصحابها ان ينقلوا القمح الى دمشق وامر ان يكون رطل الخبز بقطعتين ، ثم أتي الى مرجة دمشق فخرج اهل المدينة كباراً وصغاراً الى ملاقاته يدعون له بالنصر وطول البقاء

وقد سار الى غرب حماه فقدم اليه اهلها طائعين ، وشرع ببناء قلعتين احداهما شمالي قلعة الشماميس تجاه حلب والاخرى فوق انطاكيه ، ونهض الى بلاد الثغر وبيلان

فقدم اليه والي حلب وقدّم له ثلاثين ذهبا والف حمل مؤونة للعسكر وطلب منه الاحسان للرعايا..

وقد كان الفضل الاكبر في انتصارات فخر الدين لاتفاف اللبنانيين حوله من كل فجٍّ وصوب محاربين جميعهم تحت لوائه على اختلاف مذاهبهم باتحاد تام في سبيل غاية وطنية واحدة

وقد نتج عن تضافرهم في ميدان القتال وهرق دمائهم جنباً الى جنب أنهم تآخوا واتحدوا فباتوا في تلك الصفوف وهم يشعرون انهم شعب واحد تجمعهم حكومة واحدة بصرف النظر عن الطوائف والمذاهب، فأقام فخر الدين عمالا على البلاد من كل الطوائف على السواء لم ينظر في تعيينهم الاّ الى كفاءتهم واقتدارهم: فولى الشيخ ابا نادر الخازن على بلاد جبيل، والشيخ ابا صافي اخاه على بلاد بشرّي، والمقدّم يوسف الشاعر على بلاد البترون، فكانت من ثمّ «الامة اللبنانية» و «الامارة اللبنانية» وهما منفصلتان عما يحيط بهما من العناصر والولايات

وقد بلغ لبنانُ يومئذٍ أوجَ عزّه ومجده وبات اميره فخرُ الدين الكبير عزيزَ الشوكة واسع السطوة، وقد اقرّته الدولة على فتوحاته واطلق عليه السلطانُ لقب « سلطان البرّ ». ولقد أصبح لبنان في ذلك العهد مملكة ضخمة قوية واسعة الاطراف مرهوبة الجوانب يمتدّ سلطانها من حدود حلب الى حدود القدس الشريف[١] وكان فخر الدين يواصل في تلك الاثناء مخابراته مع ملوك اوربا وامرائها ويفاوض في الوقت ذاته فرسان جزيرة مالطه حتى كاد يوجد دعوة صليبية جديدة على تركيا :

واول من شرع بتنفيذ المحالفة وبذل المساعدة الفعلية للامير، كان دوق توسكانه « كوسموس الثاني »، فأرسل اليه سنة ١٦٣٠ الكافلير « فراتزانو » ومعه مراكب عديدة تقلّ المهندسين والعملة الاختصاصيين وكثيراً من الميرة والذخيرة[٢]

---

١ الشدياق ص ٣١٦

٢ وقد حفظ امراء توسكانه ذكراً طيباً للبنانيين فلم تنقطع العلاقات بينهم، حتى ان الدوق كوسموس الثالث لما علم بوجود احدهم الخوري بطرس مبارك في روما حوالي سنة ١٧٠٠ استدعاه اليه في فلورنسا فجعله رئيساً للمطبعة الشرقية التي

وفي الوقت ذاته كان العلاّمة ابرهيم الحاقلاني [1] يفاوض «البابا اوربانوس الثامن» للانضمام الى المحالفة

وكانت الامور من هذه الجهة جارية على ما يشتهيه فخر الدين: فالنصر باسمه له واوربا مهتمة بمساعدته وتركيا تسعى الى مرضاته حتى سكر الاميرُ بخمرة الفوز ولم يعد يحسب لاعدائه حساباً فطمح بابصاره الى السلطنة غير مخفٍ نواياه ولا متستر في مظاهره وقد بنى في بيروت خاناً للوحوش تقليداً «للسلطنة» مثيراً هواجس الباب العالي وحذره.

*

ومن نكد الطالع ان حدث في اوربا حوادث في ذلك

كان انشأها الدوق فرديننند دي مدسيس ثم عينه فيما بعد استاذاً للعبرانية في كلية بيزا (عن قاموس اللاهوت الكاثوليكي طبعة باريس سنة ١٩٠٩ ج ١ ص ٩٤٠)

١ ابرهيم الحاقلاني او الحاقلي ولد في حاقل «من بلاد جبيل» في اوائل الجيل السابع عشر. ومن المعروف ان للموارنة من قديم الزمان دالة خاصة على البابوات حتى ان البابا غريغوريوس الثالث انشأ لهم في روما المدرسة المارونية المشهورة سنة ١٥٨٤ حيث تلقى الحاقلاني علومه. وبالنسبة لتمكن الروح الوطنية من اللبنانيين في ذلك العهد على اختلاف مذاهبهم ونظراً لمقام الحاقلاني في الفاتيكان كان ذلك العلامة اشد نصير وأوفى معتمد لفخر الدين لدى البابا اوربانوس الثامن في سبيل خدمة البلاد. (عن الدويهي ص ١٧٠ والدر المنظوم ص ١٩٥. والدبس عدد ١٠٢٩. وجو بلان ص ١١٤)

العهد ، غيّرت مجرى الامور على فخر الدين وكان لها في لبنان صدى شؤم ووبال على الحركة الوطنية : وحكاية ذلك انه تفشى في ايطاليا وباء الطاعون الفظيع فانهمك « كوسموس الثاني » في درء الوباء عن بلاده وكان له من امورها الداخلية شغلٌ عن فخر الدين فكفّ عن ارسال الميرة والذخيرة اليه واستدعى من لبنان الكافليير « فراتزانوا » مع مهندسيه وعماله

وكان من جهة اخرى ان اشتدّت في اوربا وطأة « حرب الثلاثين سنة » وعصفت فيها ريحُ التباغض بين الكاثوليك والبروتستانت فريعت لها البابوية ولم يعدْ باستطاعة البابا ان يمدّ فخرَ الدين بمساعدة ولا ان يدعو اوربا الى حرب صليبية جديدة واوربا يومئذٍ غارقة في بحار فتنها وحروبها الرائعة [1]

وقعت تلك الحوادث في اوربا فاغتنمت الدولةُ الفرصةَ

---

١ « حرب الثلاثين سنة » هي سلسلة منازعات وحروب دينية سياسية شغلت اوربا من سنة ١٦١٨ الى سنة ١٦٤٨

السانحة لها على فخر الدين فجهزت حملة اشدّ هولاً من الاولى التي سيرتها عليه في بدء حكمه:

ففي سنة ١٦٣٣ أصدر السلطانُ مراد أمره الى الصدر الاعظم خليل باشا فعبئت الجيوش وزحفت على لبنان بامرة احمد باشا الحافظ كجك فوصلت الى الجبل يوم كانت انقطعت عن فخر الدين مساعدة حلفائه الاوربيين، مما حسن في مركز الحافظ الحربي. فانتشب القتال بين الفريقين وظلّ مدة سجالاً بينهما، تارةً يبسم النصرُ للبنانيين وطوراً يعبس في وجوههم حتى أُصيبوا بفقد قائدهم العام الامير علي بن الامير فخر الدين وهو من أُمهر قواد زمانه، فكان فقدُه فاتحة شؤم ووبال على قومه، ففارق السعدُ ألوية اللبنانيين وما لبث ان استظهر الحافظ كجك عليهم والتوى الامرُ على فخر الدين. وكان للامير في انقلاب الدهر عليه اسوة بمن سبقه ومن لحقه من قواد عظام وملوك كبار خانهم القدر في بلوغ مارموا اليه من الغايات الوطنية[1]

---

١ بعد ان استظهرت جيوش الدولة على اللبنانيين أرسل فخر الدين أصغر

اولاده الامير حسين مع مدبره الشيخ نوفل الى قلعة المرقب حيث اضطروا الى التسليم. ولجأ فخر الدين مع سائر اولاده منصور وحيدر وبلك يصحبهم مدبره الشيخ ابو نادر الى قلعة شقيف نيرون قرب نيحا ثم انتقلوا منها الى مغارة جزين واضطروا هم ايضاً الى التسليم.

وقد اطلق سراح الشيخ ابي نادر وابنه الشيخ نوفل. اما فخر الدين واولاده فسافروا الى الاستانة حيث غدر بهم "الا بالامير حسين" في ٢ نيسان سنة ١٦٣٥ وعمر فخر الدين ٥٢ سنة.

اما الامير حسين فابقى السلطان عليه وظل في الاستانة حتى بلغ اشده فادخل في مناصب الدولة وتقدم فيها كثيراً. وفي سنة ١٦٥١ كان مرسلا من قبل الدولة الى الهند فمر على لبنان وزار ابن عمه الامير ملحم في دير القمر فترحب به الامير ملحم وعرض عليه ان يقيم في لبنان فيتنازل له عن الامارة، فاعتذر الامير حسين شاكراً لابن عمه فضله ومروءته. وبعد ان أقام عشرين يوماً في ضيافته واصل طريقه. ثم رجع الى الاستانة ولم يعد بعدها الى لبنان (الشدياق ص ٣٣٦. الغرر ص ٧٢٨)

الفصل الثالث

الامير ملحم (١٦٣٥ — ١٦٥٨)
والامير احمد (١٦٥٨ — ١٦٩٧)

خلف فخر الدين الثاني على الامارة ابنُ اخيه الاميرُ ملحم المعني ابن الامير يونس .

ولم يصفُ الجو بين الامير ملحم وبين ولاة سوريا فكان له معهم مواقع مشهودة أشهرها « موقعة وادي القرن » سنة ١٦٥٣ حيث وقف اللبنانيون من جهة واصطفّ رجالُ الامير علي علم الدين اليمني وعساكر والي دمشق بشير باشا من جهة اخرى . وقد دام القتال ثلاث ساعات استبسل فيها الفريقان ايما استبسال ، ولم يلبث اللبنانيون أن استظهروا على الاعداء فمزّقوا صفوفهم وشتتوا شملهم فولى اليمنيُ

ورجاله الادبار واللبنانيون يعملون في اقفيتهم السيوف حتى اوصلوهم الى دمشق فلولاً مقطعة الاوصال.[1]

وكان بين المعنيين والشهابيين صلات ودّ وصداقة فأزوج الاميرُ ملحم ابنته من الامير حسين الشهابي فرُزق منها «الامير بشير» وهو الذي قدّر له ان يكون اول امير شهابي على لبنان

و بعد وفاة الامير ملحم (١٦٥٨) خلفه ابنهُ الامير احمد فكانت على ايامهِ «وقعة الغلغول» عند برج بيروت سنة ١٦٦٦ بين القيسيين واليمنيين فظفر الاميرُ باليمنيين واستقلّ بامارة بلادهم جميعها.

وسنة ١٦٨١ أزوجَ ابنته للامير موسى الشهابي فرزق منها ولداً دعاه «حيدراً» وهو الذي انتخبه اللبنانيون على الامارة بعد الامير بشير.

وقد توفي الامير احمد المعني بلا عقب سنة ١٦٩٧

---

١ الشدياق: ص ٣٣٧

فانقرضت به السلالة المعنية في لبنان وحلت محلها فيه الاسرة الشهابية ٠

obeikandl.com

الباب السادس

لبنان على عهد الشهابيين [1]

الفصل الاول

الامير بشير الاول. الامير حيدر. الخلعة. الاميران احمد ومنصور. الامير يوسف.

الامير بشير الاول (١٦٩٧—١٧٠٧)

ان تاريخ لبنان السياسي، لاسيما منذ فخر الدين الكبير، ينحصر في هذه الجملة: "ذود اللبنانيين عن استقلالهم الداخلي وسعيهم الى الاستقلال التام بقطع كل علاقة كانت تربطهم بتركيا."

---

١ راجع الدويهي والدبس والشدياق والغرر الحسان وجودت باشا ورحلة لامرتين الى سوريا وتاريخ الدولة العثمانية للفيكونت دي لاجونكيار والكولونل تشرشل الخ.

فذوداً عن استقلالهم الداخلي حالفوا الروم على العرب والصليبيين على الدولة الفاطمية وحاربوا الدولة العثمانية حروباً متواصلة

وسعياً الى الاستقلال التام التفّ اللبنانيون على اختلاف مذاهبهم حول فخر الدين الكبير واراقوا دماءهم الغزيرة في قتال تركيا كما اراقوها على عهد الامير بشير الكبير ، و في الفترة المنقضية بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٦٠

وقد فهموا وتأكدوا ان تحريرهم لا يتمّ الا باتفاقهم واتحادهم شعباً واحداً وحكومةً واحدة ، فاتفقوا واتحدوا ، فبات لبنان من الوجهة السياسية ذا مقام ثابت وطيد الاركان يعترف الجميع بمركزه الخاص وبامتيازاته الواسعة .

ولم تكن تنكر الدولة العثمانية على لبنان استقلاله الداخلي وحقه بحكم نفسه بنفسه فلم تدّع يوم خلت الامارة من المعنيين بان لها الحق ان تعين من تشاء من رجالها والياً على لبنان ، كما كانت تفعل بسائر الولايات السورية بل ، اعترفت للبنانيين بحق اختيار من يريدون خلفاً للامير احمد فاجتمع وجوه

واعيان البلاد وتشاوروا فيمن يقيمون عليهم اميراً

وقد كان كثيرون منهم يليقون للحكم سواء بالنسبة لحسبهم وغناهم او بالنسبة لجاههم وكفاءتهم . غيرأن الحكمة قضت عليهم بان يجدوا حلاً يرضي الجميع وينفي من نفوس المتقدمين فيهم عواطف الحسد واسباب الخلاف، فاتفقوا على ان لا يغيروا نظام الحكم في البلاد بل تبقى الامارة المعنية قاعدة الحكم فيه لاسيما وقد كان للمعنيين كرامة جلى في لبنان لِما تمّ له من الخير والعز والجاه على يدهم .

فقرّ رأيهم ان يكون الحكم لورثاء المعنيين الاقربين : فانتخبوا الامير بشير الشهابي ابنَ الامير حسين، وهو ابن اخت الامير احمد المتوفي وابن بنت الامير ملحم . وفي ذلك يقول الشدياق : «سنة ١٦٩٧ لما توفي الامير احمد المعني وانقطعت به السلالة المعنية اجتمعت اكابر لبنان ليتنخبوا والياً عليهم فاتفقت آراء الاكابر جميعاً على الامير بشير ابن الامير حسين الشهابي امير ريشيا ، لانه كان ابن اخت الامير احمد المتوفي . فتوجهوا الى ريشيا ودعوه للولاية

فأجاب .. وأتى معهم الى دير القمر فاستقبله الناس بعز عظيم وبايعوه الولاية على جبل لبنان . »[١]

وهكذا انتقلت امارة لبنان الى الشهابيين

*

قيل : ان امراء لبنان من معنيين وشهابيين استأثروا بالحكم فيه فاتحين غزاة وهم اجانب عنه

والحقيقة هي ان اللبنانيين من شعب وامراء ومقدمين ومشايخ ما اعترفوا بالامر لفخر الدين الثاني الا وهو اميرٌ وطني ولبناني صميم كان مضى على اسرته المعنية في لبنان يوم بويع بالامارة ما ينيف على اربعمائة وسبعين سنة فاصبح اللبنانيون يعدّونه على حقٍّ واحداً منهم

وفوق ذلك فان الروابط الشخصية التي كانت بين فخر الدين الثاني وبين اهالي كسروان والشمال كما تقدم ساعدت الامير على توحيد الحكم في لبنان برضى اللبنانيين واختيارهم .

---

١ الشدياق ص ٣٥٨ وشرشل ج ٣ ص ١٦ والغرر ص ٧٤٨

وهكذا قل عن دخول الشهابيين الى لبنان، فانهم ما وطئوا ارض الجبل وجلسوا على سرير امارته الا بناءً على قرار اللبنانيين ودعوتهم لهم.

وقد حصل مثل ذلك في اليونان وفي رومانيا و بلغاريا: فالاسرة المالكة في اليونان دانمركية الاصل اول من تولى عرش اليونان فيها الملك جورج الدانمركي سنة ١٨٦٣

والاسرة المالكة في رومانيا المانية الجنس، واول ملك منها الامير كارلوس، دعي الى تولي الامارة الرومانية سنة ١٨٦٧

والاسرة المالكة في بلغاريا نمساوية الاصل، وقد دخلها فرديننڈ الاول برضى الامة واختيارها سنة ١٨٨٧

فان صحّ ان ملوك اليونان والرومان والبلغار دخلوا تلك البلاد غزاة فاتحين صحّ ان الشهابيين دخلوا لبنان بحق الفتح[١]..

وقد توالى الشهابيون على لبنان ١٤٥ سنة من الامير بشير الاول سنة ١٦٩٧ الى الامير بشير الثالث سنة ١٨٤٢

---

١ راجع ص ٨١ ومايليها

الامير حيدر (١٧٠٧ — ١٧٣٢)

لم يقتصر اللبنانيون على انتخاب اول امير شهابي، بل بقيت عادة الانتخاب متبعة عندهم اثباتاً لكون الاستقلال هو حق للبلاد ولأهلها لا لاسرة حاكمة فيها، والاّ لزال استقلال لبنان بانقراض المعنيين قديماً، وبابعاد الشهابيين حديثاً

توفي الامير بشير الاول سنة ١٧٠٧ فاجتمع اكابر البلاد واعيانها وقرّ رأيهم على تولية «الامير حيدر[١]» ابن الامير موسى شهاب خلفاً له، وهو ابن بنت الامير احمد المعني آخر الامراء المعنيين. وقد توجهوا الى حاصبيا فاتوا بالامير حيدر الى دير القمر وعمره ٢١ سنة، وقد اعترفت الدولة به وارسلت له خلعة الولاية.

الخلع

عملاً بحق السيادة التي كانت للدولة على لبنان كان الامير يدفع جزية عن البلاد ويطلب من الدولة ان تعترف به فكانت تفعل ذلك بواسطة احد ولاتها في سوريا اخصهم والي عكا او والي صيدا، فكان الوالي يخلع على الامير فتكون

---

١ الامير حيدر هو جد الامراء الشهابيين في لبنان

الخلعة بمثابة فرمان يثبت ان الدولة اعترفت به واقرّته على الامارة اللبنانية.

وقد زعموا ان الخلعة تثبت عدم استقلال لبنان وتجعله في مصافّ الولايات العثمانية كولاية دمشق وولاية حلب وسواهما.

ولعل المرء اذا نظر الى هذه المسئلة بعين مجرّدة تبين له ان ما قيل في الخلعة من هذا القبيل هو في غير محله

ليس من يدعي ان لبنان كان حائزاً على الاستقلال المطلق مثل فرنسا وانكلترا مثلاً، لاتربطه بالدولة العثمانية علاقة ما، بل يقرّ اللبنانيون قبل غيرهم، ان لبنان على عهد امرائه ما كان حائزاً الاّ على الاستقلال الذاتي، بمعنى ان الامير كان وطنياً من اسرة خاصة، وكان مدبره ومستشاروه وطنيين، وكل المناصب والوظائف في ايدي الوطنيين، فكان لبنان والحالة هذه يدير بنفسه شؤونه الداخلية من مالية وضرائب ومحاكم واحكام وأمنٍ عام وانظمة وقوانين وكل ما له علاقة بادارة البلاد الداخلية لا شأن للدولة في

شيء من ذلك ، وهذا ما يعبر عنه « بالاستقلال الذاتي »

وقد تسلسلت الامارة في المعنيين منذ اوائل الجيل السادس عشر ، ثم انتقلت منهم الى الشهابيين سنة ١٦٩٧ فتسلسلت فيهم الى سنة ١٨٤٢ ، وبقيت للوطنيين ايضاً في عهد القائمقاميتين حتى معاهدة سنة ١٨٦١

فاذا رجعت بالامارة الى فخر الدين الاول وجدت للبنان امارة وطنية تثبت استقلاله الذاتي مدةً تناهز ٣٥٠ سنة كان فيها كلُّ مافي الحكومة اللبنانية وكل من فيها وطنياً صرفاً : فاللبنانيون يديرون امورهم بانفسهم لا تسري عليهم الخدمة العسكرية التي كان معمولاً بها في ولايات الدولة ، ولا دخل للاجنبي في بلادهم في وجه من الوجوه ، بخلاف ما كان جارياً على ابواب لبنان في الولايات السورية كدمشق وعكا وحلب ، او في الولايات البلقانية كبلغاريا ورومانيا وصربيا واليونان والجبل الاسود ، حيث كانت الدولة تولي من تشاء من رجالها وتعزل من تشاء لا رأي الا رايها ولا حكم الا حكمها ، فكانت تجند منهم الجيوش وتجبي

الضرائب والاعشار وتتصرف في البلاد تصرف المالك في ملكه ، في حين انه لم يكن لها شيء من تلك الحقوق في لبنان

ومع هذا فلم يكن لبنان حائزاً على الاستقلال التام بل كان للدولة سيادة عليه ورابطة تربطه بها خصوصا في المسائل الخارجية اذ لم يكن للبنان معتمدون في الخارج ، كذلك في مسئلة تولية الامير اذ كان لا بدّ من اعتراف الدولة به. وكان يُعبر عن تلك السيادة والرابطة بالجزية والخلعة ، ومعناهما إقرار الامير بسيادة الدولة واعتراف الدولة بالامارة اللبنانية: هذا ما تعنيه معاملة « الخلعة » وهي لا تعني غيرَ ذلك .

وقد نهج الامير حيدر على منوال جدوده المعنيين فذاد عن امتيازات لبنان جهده وسعى الى توسيعها ما استطاع مهتما بتمكين الروح الوطنية في النفوس على قاعدة « القومية اللبنانية » التي لا دخل فيها للدين والمذهب ، وقد تجسمت تلك العصبية القومية في موقعة عين دارا الشهيرة التي حصلت في ايامه سنة ١٧١١

ففي تلك الموقعة التفّ اللبنانيون القيسيون على اختلاف طوائفهم بلواء الامير حيدر فتألف منهم جيش لبناني لا يستهان به جمع بين وجهاء الدروز مثل «المقدم مراد والمقدم عبد الله اللمعيين ورجالهما» والشيخ سيد احمد ابو عذرا» والشيخ سرحال العماد ومعهما رجال الباروك وما يليهما»، وبين اعلام الموارنة «كالشيخ خازن الخازن الماروني شيخ كسروان ورجاله»[1]

وقد قاتل اولئك اللبنانيون جنباً الى جنب اعداءهم من حزب «اليمنية» وعليه محمود باشا ابو هرموش يساعده نصوح باشا والي دمشق وبشير باشا والي صيدا بعساكرهما الجرّارة. فلم يقف اولئك الباشوات وعساكرهم امام الامير حيدر ورجاله الأبأسل وكان يوم «عين دارا» يوماً مشهوداً ونصراً مبيناً للامير واعوانه فقبضوا على محمود باشا وفرّ نصوح باشا وبشير باشا منهزمين. فرجع الامير حيدر الى دير القمر تخفق فوق راسه اعلام النصر ورايات الفخار

---

١ الشدياق ص ٣٦٣

وقد نال لبنانُ على عهده من العزّ والاستقلال شأواً بعيداً متمشياً في الطريق التي خطها فخر الدين الكبير وفي ذلك يقول جودت باشا الوزير التركي في تاريخه، وشهادته لا تردّ لصدورها من رجل اقلّ ما يقال فيه انه غير متعصب للبنان واستقلاله، قال: «ان الامير حيدر الشهابي حصل في حكومة الجبل على الاستقلال التام ومن ضمنها البقاع وكان امراء الجبل في ادارتهم الداخلية واحكامهم مستقلين فلا يقدر احد من حكام الدولة ان يتداخل في امورهم الداخلية. حتى ان اهل الجناية الذين كانوا يلجئون اليهم لخوفهم من الولاة يأمنون على انفسهم، وذلك لانه كان من الاصول المرعية عندهم وجوب صيانة من يهرب اليهم ويحتمي بهم فكان الولاة لذلك لا يقدرون على استرداده»[1]

وسنة ١٧٣٢ توفي الامير حيدر «فحزن عليه اهل البلاد حزناً شديداً، وظلت النساء لابسات عليه الحداد اربعين يوماً

---

١ جودت باشا ص ٣٤٩ ومايليها

يندبنهُ في المساء والصباح. وفي ايامهِ انقطعت السلالة اليمنية وبطل ذكرها وارتفع شأن القيسيه واستظهر امرهم.»[١]

الامير ملحم (١٧٣٢—١٧٥٤)

لم تخلُ منصة الامارة بوفاة الامير حيدر حتى جلس عليها سديدَ الراي ثبتَ الجنان ولدُه الامير ملحم الشهابي، فكان خير خلف لخير سلف

ان تاريخ الامير ملحم مفعم بالمآثر الناطقة بكبر النفس وعلو الهمة وشدة البطش والصولة حتى اصبح لبنان على عهدهِ حمى يحتمي بهِ وبات اميرهُ مرجعاً يرجع اليه ولاة سوريا بمهام امورهم وفي الاختلافات التي كانت تقع بينهم:

ومن حوادثه انه نمي اليه ان بني علي الصغير اصحاب بلاد بشاره اظهروا الشماتة بموت والدهِ الامير حيدر فغضبوا ذيولَ خيولهم بالحناء سروراً، فنهض اليهم برجالهِ والتقى بهم في قرية يارون من تلك الديار فظفر بهم وكسرهم واهلك منهم

---

١ الشدياق ص ٣٦٨

خلقاً كثيراً ثم رجع الى لبنان ومعه نصار مقدم بني الصفير معتقلاً ..

وسنة ١٧٤١ حصل نفورٌ بينه وبين والي دمشق فجهز الوالي عسكراً وحضر به الى البقاع قاصداً قتال الامير، فلما بلغ الامير ذلك جمع قومه ونهض بهم الى البقاع ايضاً فلما رأى الباشا ان لا قِبل له بقتاله انهزم بعسكره فتأثره الامير حتى ابواب دمشق.

وسنة ١٧٤٣ بدا من المتاولة الشيعية اصحاب جبل عامل ما غيّر خاطر والي صيدا عليهم فكتب الباشا الى الامير ملحم يستنهضه عليهم طالباً اليه تأديبهم، فاجابه الامير الى سؤله ونهض من دير القمر بجحفل جرّار حتى بلغ جسر الاولي فلما علم المتاولة بذلك، وكان للامير في البلاد من الصولة ما كان، داخلهم الخوف والرعب ووجهوا رسلاً الى والي صيدا يلتمسون الصفح، فقبل الوالي ذلك وكتب الى الامير يخبره حتى يعود الى بلاده

وكان الامير على جانب عظيم من عزّة النفس، اذا

اسدى يداً فانما يسديها منةً منهُ وكرماً لا خوفاً واضطراراً فلما بلغهُ كتابُ الوالي اخذ عليه في نفسهِ لقبولهِ الصلح مع المتاولة بغير علمه ورضاه. فلم يعمل الامير براي الباشا بل نهض في الحال بجيشه لقتال المتاولة فالتقى بهم في قرية نصار « فخرجوا اليه بجيش عرمرم فحمل الاميرُ بالرجال وهجم عليهم كالاسد الرئبال فانكسروا وولوا الادبار فاخذ اللبنانيون اعقابهم وغنموا أسلابهم. ثم رجع الامير بعسكرهِ الى دير القمر بعزّ تام »

وحصل له مثلُ هذا النصر سنة ١٧٤٨ على اسعد باشا والي دمشق، على اثر نفورٍ جرى بينهما وقد وقعت المعركة في صحراء برالياس حيث « اصطفّ الفريقان للحرب والطعان، وعند الظهيرة هجم الاميرُ عليهم كالاسد فانكسر الوالي وعسكره. فتبعهم الاميرُ فاتكاً بهم الى ان وصلوا الى سهل الجديدة فاهلك منهم خلقاً كثيراً وغنم عسكره بهم ثم عاد الامير الى بلادهِ منتصراً فعلت همتهُ وعظمت هيبتهُ وسطوتهُ »

ومن مآثره انه عاد فضمّ بيروت الى لبنان وظلت هكذا الى عهد الجزّار .

وسار الامير ملحم في السياسة الوطنية على آرائه تكملة لعمل الامراء المعنيين من توحيد الحكومة على اساس « القومية اللبنانية » التي لا علاقة لها بالطوائف

فكنت تراه يعهد بمهام اموره الى هذا او ذاك من اللبنانيين بصرف النظر عن الدين والمذهب. ففي سنة ١٧٥٠ تطاول بنو متكر الشيعيون على بعض اقليم جزين فعظم ذلك على الامير فدهمهم في جباع الحلاوة فظفر بهم واهلك منهم ثلثمائة رجل وفرّ الباقون فارسل في اعقابهم كتيبة من جيشه بامرة الامير مراد اللمعي الدرزي والشيخ ميلان الخازن الماروني .

وأبلغُ من ذلك انه لما مرض الامير ملحم سنة ١٧٦١ عهد بالوصاية على اولاده الى الشيخ سعد الخوري صالح الماروني غير ناظر في تقليده تلك المهمة الاّ الى كفاءته واخلاصه [١]

---

١ الشدياق ص ٣٧٠ ومايليها

وفي ايامه حلّ محل القيسية واليمنية «الحزب الجنبلاطي» «والحزب اليزبكي» وأساسهما السياسة والعصبية القومية ، لا الدين والمذهب .

الامير احمد والامير منصور (١٧٥٤ — ١٧٧٠)

خلفَ الاميرَ ملحم اخواهُ الاميرُ احمد والامير منصور ثم استقل الاميرُ منصور بالأمر الى سنة ١٧٧٠ وشعر من نفسه ضعفاً فأراد ان يعتزل الحكم ويتنازل عنه لابن اخيه الامير يوسف ، فلم يغفل عما لاهل البلاد من ابداء الراي في مثل هذه الظروف احتفاظاً بامتيازاتهم ومراعاة لتقاليدهم. فجمعهم وأخذ رأيهم وموافقتهم. وفي ذلك يقول الشدياق : «ان الامير منصور جمع امراء البلاد واكابرها واعيانها في نبع الباروك وخاطبهم قائلاً : «يا معشر آل لبنان من امراء واعيان . . انني لِمَا مضى عليَّ من الزمان قد ضعف جسمي وضجرت نفسي ولم يبقَ لي اقتدار على حمل اعباء الولاية فها انا قد خلعتُ نفسي عنها وسلمت مقاليدها طوعاً الى

ابن اخي الامير يوسف فكونوا له مطيعين واعلموا انهُ هو الوالي عليكم اجمعين.. »[١] فرضي اهلُ البلاد بالأمير يوسف وبايعوه الولاية سنة ١٧٧٠ وابلغوا الدولة ذلك فاعترفت به.

الامير يوسف (١٧٧٠—١٧٨٨)

جلس الامير يوسف ابن الامير ملحم على منصة الامارة اللبنانية واستقلّ له الامرُ فيها «من ظاهر طرابلس الى ظاهر صيدا.»[٢] وكان مدبرهُ الشيخ سعد الخوري الذي كان وصياً عليه وعلى اخوته. وقد حدث في عهدهِ قلاقل واضطرابات في ولايات سوريا على يد الشيخ ظاهر العمر كان لها تأثير سيئٌ في لبنان..

وانحس ما مُني بهِ لبنان في تلك الايام كان احمد الجزّار الذي أحسن الاميرُ يوسف اليه فجحد الفضل وكفر بالنعمة. فقد هربَ الجزارُ من علي بك والي مصر وأتى الى

---

١ الشدياق ص ٣٨٦
٢ الشدياق ص ٣٨٧

امير لبنان يحتمي به، فقبلهُ الاميرُ واكرمهُ وأبقاهُ عنده في دير القمر اياماً ثم بعثهُ الى بيروت ورتب له نفقة من جمركها. وكان الجزار يظهر للامير الامتنان العميم ويعترف له بالفضل الجزيل حتى وثق به الامير واختار ان يجعلهُ متسلماً من قبلهِ في بيروت فلم يستحسن مدبرهُ الشيخ سعد الخوري ذلك الراي لقلة ثقتهِ بالجزار ولخوفهِ من مكايده، وكان قد آنس منه المكرَ والخديعة، فحذَّر الاميرَ من عاقبة ترقيةِ الجزّار، فلم يشاطر الاميرُ مدبرَه تلك المخاوف وعين الجزار متسلماً على بيروت. فلم تطل المدة حتى تمَّ ما تنبأ به الشيخ سعد وظهر من الجزّار الخروج على الامير، فوضع يدهُ على بيروت ومازال يدسُّ الدسائس ويدبر المكائد حتى توصل الى مقام الولاية ورتبة الباشوية وانقلب على ربّ نعمتهِ الامير يوسف ايما انقلاب

ولم يخدم الحظُّ الامير يوسف على الجزار فرأى ان يتنحىَّ عن الامارة بعد ان حصل عليها منازعات بينه وبين أخويه الامير سيد احمد والامير افندي، وعملا بتقاليد

البلاد فعل ما فعله عمهُ الاميرُ منصور من أخذ راي الامة فيمن يخلفهُ على الامارة، فجمع هو ايضاً اكابر البلاد سنة ١٧٨٨ وذكر لهم متاعبهُ وقال لهم ان يختاروا لهم حاكماً غيره من الامراء الشهابيين اللبنانيين فاختاروا الامير بشير ابن الامير قاسم عمر وهو الملقب بالكبير..[١]

١ الشدياق ص ٤١٩ ومابليها

الفصل الثاني

الامير بشير الثاني الكبير (١٧٨٨ — ١٨٤٠)[1]

حملة بونابرت على سوريا . جلاء الافرنسيين .

محمد علي والامير . الحملة المصرية على سوريا

ان تاريخ الامير بشير الثاني يُعيد الى الذهن ذكرَ تاريخ الامير فخر الدين الثاني لما ثَمّ من وجوه الشبه بين الحوادث التي جرت للاميرين الكبيرين . فخر الدين عزّزَ مقامَ الامارة اللبنانية في سوريا حتى هابت سطوتهُ حكامها وولاتها والاميرَ بشير نال من الجاه والسطوة ما كاد يعيد الى لبنان مقامه على عهد فخر الدين

---

١ هو الامير بشير بن قاسم بن عمر بن حيدر الشهابي ولد في غزير سنة ١٧٦٧

وطد الامير المعني الكبير دعائمَ الاستقلال الداخلي في لبنان حتى كاد يستقل بهِ تماماً ووسع حدودَهُ توسيعاً جعل له ملكاً يمتدّ رواقه من القدس جنوباً الى حلب شمالاً.

ولم يقصر الامير بشير عن سلفهِ فيما خصّ الاستقلال الداخلي، كما انه لم يقعد عن الاهتمام بحدود لبنان فاعاد اليه بيروت والبقاع وضمّ بعلبك ووادي التيم[1]

سعى فخر الدين الى قطع كل صلة كانت تربطه بتركيا فسافر الى ايطاليا لعقد محالفات فيها على الدولة، وطمح الامير بشير الى الغاية نفسها فركب البحر الى القطر المصري حيث وجد في العزيز «محمد علي» مساعداً قوياً وحليفاً جسوراً. وقد سهل اتفاقهما سعيُ كلٍّ منهما الى الانعتاق التام من ربقة الدولة العثمانية

وكان لبنان على عهد الاميرين يتمتع بالراحة التامة والامن الوافر حتى أصبح لبنان مضربَ الامثال من هذا القبيل.

وتوحيد الحكومة الذي تمّ على يد فخر الدين قد

---

١ الشدياق ص ٤٥١

وطدَ الاميرُ بشير دعائمه وعزَّزَ اركانه حتى لم يبقَ في البلاد أمرٌ لحاكم سواه

هذا والروح الوطنية المجرّدة قائمة في البلاد على اساس «القومية اللبنانية» بصرف النظر عن الاديان والمذاهب حتى ان اللبنانيين على اختلاف مذاهبهم حاربوا جميعهم جنباً الى جنب على عهد الاميرين غير ناظرين الاّ الى المصلحة القومية .

ولم يعرف لبنان اهوال الحروب الداخلية والفتن الاهلية حتى لعبت به ايدي الدسائس فبثوا في صدور اهليه روح التعصب للدين والمذهب ، ومن ثمَّ فقدَ لبنانُ عزّه وقوته ولولا ان تداركتهُ العناية لضاع القليلُ مما أبقت عليه تلك المحن الطائفية من الاستقلال الداخلي :

ان في تلك العبر التاريخية لأُمثولة حية لعقلاء اللبنانيين تهيب بهم الى الرجوع بالبلاد الى عهد الاجداد نابذين الفوارق الدينية ، لتعودَ الى لبنان وحدةُ حكومته قائمةً على دعامة «القومية اللبنانية» لا على اساس العصبية

الطائفية ، وهي بدعة ضعضعت قواعد الاستقلال في لبنان

*

حكمَ الاميرُ بشير الثاني في لبنان زهاء نصف قرن نال فيه من العز شأواً بعيداً. الا انه تخلل تلك المدة ، حتى سنة ١٨٢٣ ، كثير من المنازعات المشؤومة بينه وبين ذويه من الامراء الشهابيين : الامير يوسف ، ثم الاميرين حيدر وقعدان ، ثم اولاد الامير يوسف وهم حسين وسعد الدين وسليم ، ثم الامير عباس اسعد ، ثم الامير سليمان سيد احمد ، ثم الاميرين حسن علي وسليمان سيد احمد.[1] فتداولوا الحكم في البلاد مدة حتى استقرَّ اخيراً للامير بشير. وقد كان للسياسة التركية المعهودة ولدسائس عمالها يدٌ كبيرة في ذلك[2]

---

١ حيدر بن ملحم بن حيدر. قعدان بن محمد بن ملحم بن حيدر. عباس بن اسعد بن يونس بن حيدر. سليمان بن سيد احمد بن ملحم بن حيدر. حسن بن علي بن حيدر.

٢ ان منازعات الامراء في ذلك العهد اشبه شيء بالحروب التي وقعت في كثير من البلدان بين الملك والمطالبين بالعرش من ذوي قرباه: فقد حصل مثل ذلك في انكلترا في الجيل السابع عشر وفي اسبانيا سنة ١٨٧٥. وكانت اشد

وقد بلغ من سطوة الامير في سوريا انه أصبح صاحب الكلمة النافذة بين ولاتها والمرجع الذي يرجعون اليه في ملماتهم. وكان اذا حدثت مشاكل وثورات في البلاد وطلب منه تفريجها وقمعها ، أغنت هيبته وسطوة جيشه اللبناني عن الحرب والقتال :

من ذلك ان الامير عبد الله بن مسعود الوهابي التميمي قدم سنة ١٨١٠ من الحجاز الى حوران غازياً فتصدّى له يوسف باشا والي دمشق وكتب في الامر الى سليمان باشا والي عكا وقد استكبر الواليان قوة الوهابي فاستنجد والي عكا بالامير

فلبى الاميرُ طلبه وقام من دير القمر بخمسة عشر الف من رجال البلاد ونزل الى جزين ومنها الى مرج عيون

القلاقل من هذا القبيل في فرنسا بين المطالبين بالامبراطوريه والمطالبين بالملكية مما حمل حكومة الجمهورية على سن شرعة النفي في ١١ حزيران سنة ١٨٨٦ وهي تتناول جميع الامراء المطالبين بالعرش سواء كانوا من الامبراطوريين او من الملكيين ، حتى ان الحكومة الافرنسية اضطرت في اوائل هذه الحرب الى منع الدوق دورليان المطالب بالملكية من التطوع في الجيش الافرنسي .

فلاقته عساكر الوالي الى خان المنى ضاربين قدامه بالطبول والزمور ومطلقين البارود حتى وصل الى جانب طبريا ونزل في الخيام التي ضربت له وكانت نحو اربعمائة خيمة. واذ علم الوهابيون بذلك رجعوا عن تلك الديار خاسرين [١]. وعلى أثر ذلك اسرَّ سليمان باشا المذكور الى الامير انه أتاه فرمان الولاية علي دمشق ويخاف ان واليها يوسف باشا لا يسلمها طوعاً، وهو كثيرُ المال والرجال، فان رضي الامير ان ينجده على والي دمشق سار اليها، والاّ ردَّ الفرمان الى الدولة. فوعده الامير بالمساعدة وفعلاً ساروا الى دمشق حتى اذا بلغوها حضر اليهما وفدٌ من اعيانها، فقال لهم الامير: «خيرٌ لكم ان تسلموا لسليمان باشا، والاّ فسأجلب عليكم عساكر مثل قطع الغمام ولا احول حتى اسلمه المدينة ولو خراباً، فان قبلتم نصيحتي فاطردوا يوسف باشا من عندكم ولا تلقوا بايديكم الى التهلكة». ولما راى الدماشقة توارد عساكر لبنان اضطربوا وطلبوا المهلة ثلاثة ايام. وعلى أثرها

---

١ الشدياق ص ٤٨٢ والغرر ص ٩١٢

أبى والي دمشق التسليم فحاربهُ الامير وسليمان باشا فكسراه ودخل الامير وسليمان باشا دمشق ظافرين فالتقاهما الدماشقه بالتعظيم والاجلال.[١]

وسنة ١٨٣٠ طلب الوزير عبد الله باشا والي عكا معونة الامير لفتح قلعة سانور تاديباً للنابلسيين وكانوا قد شقوا عصا الطاعة، وكان عبد الله باشا صديقاً للامير. فأحبَّ الاميرُ ان يساعده فعبأَ جيشاً لبنانياً ونهض بهم من الاولي الى عكا وأبقى ولده الامير اميناً في لبنان. فالتقاه الوزير بالموسيقى والعساكر اجلالاً وتعظيماً ثم سار الامير بجيشه وضرب الحصارَ على القلعة فوقع الرعبُ في قلوب النابلسيين وبدأوا يسلمون له فئةً فئةً

اما الوزير فاشتدَّ ساعدُه باللبنانيين فاستدعى مشايخ نابلوس الذين كانوا عنده في عكا وأخذ يتهددّهم قائلاً لهم: «اما تعلمون ان رجال الامير اللبنانيين مشهورون بالشجاعة والبطش، واميرهم هذا ماسار في مهمة الاّ وايده الله فيها

---

١ الشدياق ص ٤٨٥

ونصره على الاعداء .. اما سمعتم في قرية عرطوز كيف شتت عساكر يوسف باشا الكردي والي دمشق ، وكيف ظفر بعساكر درويش باشا في ريشيا وهزمهم الى دمشق ، وكيف ظفر في واقعة المزة ، وكيف شتت شمل عساكر المختارة. فلما سمع المشايخ كلامه ارتعدوا وجعلوا يعتذرون اليه قائلين: ان ما فعله اصحابنا في نابلس لم يكن بعلمنا اصلاً .. »

ثم عادوا الى المدينة وتخابروا بامر الصلح ولم يلبثوا ان سلموا القلعة .. فكتب الوزير الى الامير امين يبشره بفتح القلعة وهدمها « ويخبره ان ذلك من همة الامير بشير والده »[1] الى غير ذلك مما يطول شرحه ويثبت ما كان للبنان من الاستقلال في سوريا ومن السطوة بين حكامها

ومما يُروى عن إباء الامير ونخوته انه اجتمع يوماً بشريف باشا احد وزراء الدولة فسأله الباشا متهكماً: من اين إمارتك؟ فاجابه الامير: إمارتي من سيفي هذا. فاغتاظ

---

١ الشدياق ص ٥٦٥

شريف باشا ولم يجب [١]

ولم يكتفِ الامير بما ناله من الاستقلال الداخلي بل بات يعلل النفس بتحقيق الغاية الوطنية الكبرى من نزع السيادة العثمانية عن البلاد. ولم تخفَ نوايا الامير ومطامحه على من جعلت لهم الظروف علاقةً بلبنان، منهم قائد عصره ومعجزة زمانه بونابرت

حملة بونابرت على سوريا [٢]

خرج ذلك القائد من احشاء الثورة الكبرى صغيراً ثم طغى عليها تيارُ بطشه فأغرقها في بحر قوته ومجده وكاد يتملك العالم لولا ان الطبيعة والكوائن غالبته فغلبته

سير على مصر حملته المشهورة فظفر بجيشها ومماليكها «فأطلت من الاهرام اربعون جيلاً تعجب به وبابطاله».

وبعد تدويخ مصر، زحف على سوريا فتساقطت امامه

---

١ الشدياق ص ٥٧٧

٢ *Mémoires de Napoléon* T. II p. 175 & s.

قلاعها الواحدة تلوَ الاخرى حتى وصل الى اسوار عكا فعانده فيها القدر فلم يُتح له ان يفتحها «فيغير وجه العالم»

لم يكن بونابرت يجهل ما كان بين فرنسا ولبنان من الصلات وما في قلوب اللبنانيين من المنزلة والمحبة للفرنسيين، كما انه كان يعلم ما كان عليه لبنانُ من القوة والمنعة [١]

ولم يفت بونابرت من جهة اخرى، ان الامير بشير وقومه كانوا يسعون الى توسيع حدودهم ويطمحون الى نزع سيادة الدولة عنهم، وان بين الامير والجزّار ضغائن لا ينساها الامير خصوصاً بعد اغتصاب الجزار مدينة بيروت، غدراً ولؤماً.

فلما وصل بونابرت الى ابواب عكا بادر الى مخابرة الامير بشير كما تخابر البلاد المستقلة، فأنفذ اليه مع «الكولونل سبستياني» [٢] كتاباً ودياً بتاريخ ٢٠ مارس سنة ١٧٩٩ يخبره فيه بقدومه ويبلغه اعتماده على مساعدته

---

١ ورد في تاريخ الدولة العثمانية للفيكونت دي لاجونكيار ج ١ ص ٣٢٣ ان لبنان كان بامكانه يومئذ تجريد اربعين الف مقاتل

٢ مذكرات عن سوريا: لشاهد عيان ص ٩٤

واعداً اياه بانالته مبتغاه من توسيع حدود لبنان وردّ بيروت اليه مع مدنٍ اخرى تلزم لتجارته . وختم بونابرت كتابه بقوله : «واودّ انك في اسرع ما يمكن تأتي انتَ او ترسل من قِبلك من تعتمده ليقابلني هنا امام عكا حتى نتخذ الاحتياطات اللازمة للقضاء على العدو المشترك»[١]

ولو لم يسمع الامير الاّ داعي ميوله ولو لم يُصغ الاّ الى صوت قومهِ ونزعة عواطفهم لبادر الى معسكر بونابرت ولتألب اليه ابطالُ اللبنانيين نجدةً للجيش الافرنسي كما فعل أجدادهم من قبلهم يوم هبطوا من جبالهم ينيفون على ٢٥ الف مقاتل بامرة الامير سمعان نجدةً للملك لويس التاسع واتوه في ذلك المكان نفسه تحت اسوار عكا.[٢]

الا ان الامير رأى نفسه مضطراً الى عدم الاندفاع والتسرع لعلمه ان قلعة عكا حصن منيع قد يتعذّر على القائد الفتى فتحهُ رغم مقدرته وبسالة جيشه..

---

١ البارون دي تستا: مجموعة المعاهدات الدولية ج ٢

٢ راجع ص ٦٠

ولعله أخذ على بونابرت انه لم يعده بالاستقلال التام فلم يرَ ان يقامرَ بمركزه، وغاية ما قد ينالهُ في حالة الانتصار على الدولة، هو ان يبدلَ سيادتها بسيادة فرنسا عليه، فيسدّ اذ ذاك في وجههِ باب الامل بالوصول يوماً الى الاستقلال المطلق وفرنسا على ما هي عليه من القوة، في حين ان باب الرجاء يظلّ مفتوحاً امامهُ على مصراعيه اذا بقي الامرُ بينه وبين تركيا وعلامات الهرم والانحلال بادية عليها لكل ذي بصيرة.

ورأى من جهة اخرى ان المراكب الانكليزية تملأ البحر وهي تمدّ القلعة بالميرة والذخيرة وتضرب بمدافعها الجيش الافرنسي المرابط امام عكا، وأن للاميرال الانكليزي سميث سلطاناً على البحر لا ينازعه فيه منازع

فأيقن الامير والحالة هذه انه لو أنجد بونابرتَ ولم يبسم له النصر فالجيش الافرنسي يعود من حيث أتى وتدور الدائرة على لبنان واستقلاله. وهذا ما حصل فعلاً للامير بشير نفسه بعد اربعين سنة من ذلك التاريخ حين خاطر بقوته وبامارته

متحداً مع محمد علي وفرنسا على الدولة. فقد أُرغم يومئذٍ محمد علي على ترك سوريا فتركها ، أو أُهمل الامير كما أهملته فرنسا ، فكانت النتيجة ان فرنسا لم تُنل بضر ولم تُصب بمكروه ، وظلّ لمحمد علي سريرُ مصر ، الاّ ان الدائرة دارت على الامير بشير وحده فخلع عن الامارة وانهارَ بعده صرحُ الاستقلال في لبنان

وقد ادرك بونابرت حَرَجَ موقف الامير فاكتفى منه بملازمة الحياد وبعدم الميل عليه مع الجزار ، واثباتاً لعذره له في حياده اهدى اليه بندقية ثمينة عربون المودّة والصداقة

وكان الجزار في الوقت نفسه يراسل الامير ويستحثه على النهوض بجيشه لانجاده ، محاولاً اقناعه تارة بالوعد وطوراً بالوعيد ، فلم يغترّ الامير بوعده ولم يعبأ بوعيده ، فأبى مساعدته بايّ نوع كان . فوجد عليه الجزارُ طول حياته ، فلقي لبنان من جراء ذلك ويلات ومحناً شديدة لا محل لذكرها

وقد ظلّ الاميرُ يرقب مجرى الامور عاطفاً كل العطف

على جيش بونابرت وباذلاً له ما استطاع من المساعدات.

ومما يؤثر عن اللبنانيين في هذا الصدد ان قافلة كانت سائرة على طريق عكا تحمل من بكفيا خمراً الى الجيش الافرنسي فقطعت رجالُ الجزار عليها الطريق وبلغ الخبر اللبنانيين فهبطوا الى السهل مبادرين ونكلوا برجال الجزار وحرقوا قراهم [١]

بعد جلاء الفرنسيين عن سوريا

كانت الثورة الافرنسية قد نشرت مباديها الحرة في العالم فزعزعت العروش وهاجت في الامم عاطفة الاستقلال واوجدت نزوعاً الى تفكيك قيود الظلم وتكسير اغلال العبودية. وقد ساعد على نشر تلك المبادي في تركيا ضعفُ الدولة وانحطاطُ قوتها، فأخذ عقدُ ذلك الملك الشاسع ينفرط حبةً حبةً: فانتزع محمد علي مصرَ من يد السلطان

---

١ الشدياق ص ٤٤٩

سليم الثالث (١٨٠٥) وثار الوهابيون في العربية ثورتهم المشهورة سنة ١٨١٣، وكانت نيران الثورة تشتعل في صربيا، بينما دعاة الاستقلال في بلاد اليونان امثال «ايبسيلنتي» و «كاناريس» و «كوندوريوتيس» يستنفرون قومهم على غزاتهم الاتراك سعياً الى الانعتاق من ربقة الفاتحين[١].

تلك كانت احوال الشعوب في تركيا من توترٍ في الأعصاب وغليانٍ في الصدور في الوقت الذي تلا جلاءَ الحملة الافرنسية عن عكا وسوريا

وكان الامير بشير في تلك الاثناء، يواصل مساعيه الوطنية رغم مناوءات الجزّار له. وقد آتته الظروف فتمكن بدهائه وحسن سياسته من حمل الدولة على الاعتراف له بسلطانٍ يمتدّ رواقه على جبل لبنان ووادي التيم وبلاد بعلبك وبلاد البقاع وبلاد المتاولة. وقد نال من وزير الدولة يوسف ضياء باشا وعداً صريحاً بان تلك البلاد تبقى دائماً ضمن امارته ولا يكون للوزراء تسلط عليه.

---

١ راجع ص ٧٦

وقد قضى الامير كل مدة حكمه وهو لا يعرف للتعصب الديني معنى فكان مدبروه واعوانه واخصاؤه وحاشيته من كل الطوائف على السواء تكفيه منهم الكفاءة واللياقة كما كان الامرُ على عهد فخر الدين الكبير.

ومما يذكر له في هذا الصدد ان دروز الجبل الأعلى قرب حلب استغاثوا به سنة ١٨١١ فاحضرَ منهم عائلاتٍ كثيرة الى لبنان وأسكنهم فيه وأغدقَ عليهم. وفي ذلك يقول سيادة الدبس: «سنة ١٨١١ أرسل دروز الجبل الأعلى يستنجدون الامير بشير على اعدائهم فارسل اليهم فارس الشدياق بجماعةٍ، وارسل الشيخ بشير جنلاط رجلاً من الدروز اسمه حسون بدر، فحضر معهم الى لبنان اربعمائة عائلة من الدروز وانعم الامير عليهم بمئة الف قرش واسكنهم بين الدروز في لبنان»[١]

وكان له ميلٌ الى الادب وعطفٌ خاص على الادباء فجعل في خدمته المعلم بطرس كرامه الذي يصح

---

١ الدبس: تاريخ سوريا ج ٨ عد ١٠٩٥

ان يدعى «شاعر الامير»

ومن مآثره انه بنى جسر نهر الكلب وكان قد تهدّم ، وبنى جسراً على نهر الصفا وجسراً على نهر الدامور.

ومما خلد ذكره سراي بيت الدين وماؤها: فقد شيد السراي اية في الفخامة والاتقان ، فعدّت على حق معجزة ذلك الزمان . وقد أفاض في وصفها المسيو دي لامرتين في رحلته الى الشرق والكولونل تشرشل في كتابه عن جبل لبنان .[1]

وقد شهرت السراي باسم الامير كما عُرفت فرسايل باسم لويس الرابع عشر . وقد كانت السراي بما فيها من خير وسعة ضيافة وبمن فيها من جندٍ واعوان وكتبةٍ وخدم وعبيد ، تحاكي قصور الملوك ابهة وجلالاً ، حتى اذا تمثلتها وقد جلس الامير في قاعتها تحفّ به اعيان البلاد وشاعره ينشد بين يديه القصائد ، لدى كل مأثرة او موقعة ، مرّ في

---

١ لامرتين : رحلته الى الشرق ج ١ ص ١٨٧
تشرشل : ج ٣ ص ٢٦٣

خاطرك ذكر عهد الخلفاء العباسيين في بغداد.

ولم يكن في بيت الدين ماءٌ كافٍ، فلم يصعب على همة الامير ان يجلبه من مسافة شاسعة بعد عناء دام ثلاث سنوات، لبعد المسافة ووعورة المسالك ووقوف الشغل في فصل الشتاء، فعد عمله في ذلك العهد «فتحاً عظيماً». وفي ذلك يقول صاحب الغرر: «انه كان في دار الامير من الاعوان المقيمين ببابه نحو ٣٠٠٠ رجل، عدا الخيل والبغال ونظائرها. فلم يكن الماء يكفي هؤلاء الشاربين فضلا عن غيرهم من زائر وطارق وذي حاجة. فكلف الاميرُ رجلاً اسمه خليل عطيه ان ينظر اذا كان جرّ المياه ممكناً. فوجد خليل عطيه الماء على مسافة ثلاث ساعات، في عين زحلتا من ينبوع يقال له ينبوع القاع بجانب نهر الصفا، فعرض للأمير فأمر الامير بجرّ المياه وبوشر العمل حالاً. وكان جميع اهالي البلاد تحضر كل سنة يومين تعمل في هذه القناة بغير اجرة اكراماً للامير. وظل الشغل فيها ٢٢ شهراً تماماً حتى وصلت المياه الى السراي. وكان ذلك فتوحاً عظيماً لم يقدر عليه احد من

أسلافه لبعد المسافة وعسر المكان . وقد انفق على ذلك ما ينيف على المائتي الف درهم . »[1]

وقد اثار نجاحُ الامير وعلوّ مكانته حقد ولاة سوريا وحسدَهم ، فباتوا يناوئونه ويغتنمون كل فرصة لاثارة الفتن في لبنان وتأييد الاحزاب وبذر بذور التفريق والشقاق ، فنجحوا في مهمتهم فكان ما كان من المنازعات والقلاقل والقتال بين الامير بشير وذويه من الامراء المطالبين بالحكم ، وبينه وبين الشيخ بشير جنبلاط ، مما أدّى الى مظالم واضطهادات لا تخلو منها امثال هذه الحوادث ، فكان ذلك سبباً في تأخر البلاد واضعافها ، وهو غاية ما كانت تسعى اليه تركيا وولاتها في سوريا

ولم يكتفوا بايجاد القلاقل في لبنان بل اخذوا يسعون بالامير بشير الى الدولة متخذين ما بلغه من الجاه وبسطة الملك سبباً في اثارة هواجسها حتى تمكنوا من بلوغ غايتهم

فأضمرت الدولةُ الشرّ للامير كما كانت أضمرته

---

١ الغرر ص ٩٢٨ ومايليها

لفخر الدين من قبله يوم شعرت بازدياد قوته وتعاظم شأنه . فلم يخفَ على الامير انقلابُ الدولة عليه ورغبتها في الايقاع به فرأى من الحكمة ان يسعى ، كما سعى فخر الدين قبله ، الى ايجاد حليف يعضده فلم يلقَ اقرب اليه من محمد علي عزيز مصر. فسافر الاميرُ الى القطر المصري سنة ١٨٢٢ ومعه ولداه الاميران خليل وامين و٩٤ رجلاً من خواصه وحاشيته

محمد علي والامير

رجلان ملأَ اسمهما في مصر وسوريا تاريخَ النصف الاول من القرن التاسع عشر: ذلك ألبانيُّ الاصل عصامي ، طمح الى المجد فانتزع مصرَ من يد صاحبها وأقام فيها سريرَ ملكه على أنقاض عرش سلطانها. ساعدته «القوة» فاعترف له بالملك وبحق الارث لابنائه.

وهذا لبناني كريم وامير جليل يرجع مجد أحسابه الى قبل الاسلام. لم يُوجد الامارةَ اللبنانية من العدم ولم ينتزعها من يد أحد ، بل تابعَ بجلوسه على منصتها سلسلةَ امراءٍ

كرام وطدوا دعائمها ووحدوا حكومتها. الا ان «القوة» لم تساعد الامير كما ساعدت «محمد علي» فكان ذلك سبباً كافياً لخلعه وامتهانه، لم تشفع به امارته وحسبهُ وجلالُ شيخوخته ومقام بلاده.

ولعلّ في المبادي الشريفة التي أنتجتها هذه الحرب ضماناً لسيادة الحق، لانه حق، بصرف النظر عما يكون في خدمته من قوةٍ تؤيده.. اذ ذاك يُطلق لبنان من قيوده ويُعترف للبنانيين بكيانهم وحقوقهم ....

كانت شهرةُ الامير قد سبقته الى بلاد العزيز فلما بلغ القطار المصري أحسن محمد علي استقباله وأكرم وفادته وقال له: «انه لم يدخل على مصر اعزّ منك»[1] وقد وضع في خدمته ما شاء له الكرم من المال والرجال والخيل والجياد اجلالاً لمقام ضيفه الكريم

وقد كان لمحمد علي مطامع بسوريا ورغبة بضمها الى مصر فكان يهمه كثيراً ان يحالف رجلاً في سوريا له ما

---

١ الشدياق ص ٥٣٦

للامير من القوة والسطوة

وقد كان لهما محادثات طويلة في هذا الشأن أدّت بهما الى الاتفاق على ان ينجد الاميرُ الجيشَ المصري في حملته ، ويُقرّ محمد علي الاميرَ على امارته في لبنان

وقد ذكر صاحب الغرر شيئاً من ذلك قال :

« بعد بضعة ايام حضر العزيز من شبرا الى القلعة فاستدعى اليه جميع العلماء وقواد الجند وأمر باحضار الامير فحضر واستقبله العزيز بكل ترحاب وأمر له بالجلوس وشرب القهوة واخذ يلاطفه بالحديث ، ثم صرف الحاضرين وأمر ببقاء الامير وأسرّ اليه جميع ما يرغبه منه من الخدمة في جبل لبنان عند الحاجة لانه كان عازماً على تملك بلاد الشام بالسيف . »[١]

وكان لابدّ للعزيز قبل اتمام عزمه من اصلاح ذات البين بين الدولة والامير من جهة ، وبينها وبين عبد الله باشا والي عكا صديق الامير من جهة اخرى ، حتى اذا تمّ ذلك

---

١ الغرر ص ١٠٠١ ومايليها

عاد الامير الى لبنان لا ينازعه في الامارة منازع . فاهتمّ محمد علي بالامر لدى الباب العالي حتى تمّ له ما أراد

فلما بلغ الخبرُ الامير استأذن بالسفر فاجابه العزيز اني اريد بقاءَك مدة عندي لانك بمنزلة ابني ابرهيم وكل ما فعلته نحو عبد الله باشا من الجميل فهو لاجل خاطرك . فشكر له الامير تلطفه وودعه وسافر بالعز والاقبال ، وقد مرّ في طريقه على عكا ، فاستقبله عبد الله باشا كما تُستقبل الملوك فخرج الى لقائه باكابر دولته والمدينة برهج عظيم واطلقت له المدافع . »[1]

وبعد بضعة ايام قضاها الاميرُ في ضيافة عبد الله باشا عاد الى لبنان واستلم الحكم فيه على اشدّ ما كان عليه من العز والسطوة .

الحملة المصرية على سوريا

سنة ١٨٣١ اغتنم محمد علي اول فرصة عرضت لهُ ،

---

١ الشدياق ص ٥٤١

فتشبث بها لاتمام نواياه فجهز جيشاً ضخماً وارسله لفتح سوريا بأمرة ولده ابرهيم باشا

وبناءً على الاتفاق الذي عُقد بين محمد علي والامير أنجد الاميرُ الجيشَ المصري برجاله ، فحارب اللبنانيون عساكرَ الدولة حرب الابطال وقد كان لهم يدٌ جلى في كثير من انتصارات ابرهيم باشا ، كما شهد بذلك قنصل الروسية فيما بعد .[1]

وقد ظلّ الامير في ذلك العهد كما كان قبله عزيزَ السلطان واسعَ السطوة كما يتبين ذلك مما كتبه عنه المسيو دي لامرتين في كتاب رحلته الى الشرق[2]

---

١ انظر كلامه فيما يلي ص ١٨١

٢ زار لامرتين الامير في سراياه سنة ١٨٣٢ وقص ذلك في كتاب رحلته المذكور حيث جاء ما ترجمة بعضه ملخصاً :

قصدنا دير القمر (بيت الدين) حيث سراي الامير بشير حاكم جبل لبنان بعد ان انتهينا من الغداء ارسل الامير الينا يقول انه بانتظارنا. فدخلنا باحة فسيحة تزينها فسقيات ، وسرنا في رواق قامت على جانبه اعمدة عالية مرتكزة الى الارض تحمل سقف السراي .

وكان يملا نصف القاعة كتبة يلبسون « القنابيز » الطويلة وفي زنار كل منهم دواة مذهبة يشكونها فيه مثل الخنجر ، وبعض من ابناء البلاد لابسون

ولم يقتصر حكم الامير في عهد المصريين على لبنان والبقاع بل تعداه الى ايالة صيدا ، فقد جاء في الغرر الحسان ص ١٠٢٢ عن حوادث سنة ١٨٣١ ما حكايته : « وفي اثناء ذلك كتب العزيز الى ولده ابرهيم باشا ان يفوض الى الامير معاطاة احكام ايالة صيدا وان يكون تعيين جمع المتسلمين واصحاب المقاطعات . »

الاّ ان ابرهيم باشا ، بعد ان استتبّ له الامر في سوريا ، لم يحسن معاملة اللبنانيين كما كانوا يأملون ، ولعله خفي عليه صحة موقفهم من انهم شعبٌ حيٌّ ما حاربوا معه جيوش الدولة على سبيل الطاعة العمياء للامير بشير ، بل سعياً الى غايةٍ وضعوها نصب اعينهم ألا وهي نيل الحرية المطلقة

نياباً فاخرة وحاملين اسلحة صقيلة ، وكان نفر من العبيد يرقبون اوامر سيدهم وهنا وهناك بعض من الضباط المصريين . وكان النصف الثاني من القاعة أعلى قليلا من القسم الاول وعلى دائره ديوان من المخمل الاحمر الفاخر ، وكان الامير متربعاً في زاوية الديوان

وهو شيخ جميل الطلعة ذو عين براقة ، تلوح عليه سيماء الراحة والنشاط ، ذو لحية وخطها الشيب مسترسلة على صدره ، وكان مرتدياً « غنباز » ابيض

ولما رأى اللبنانيون ان آمالهم بالدولة المصرية لم تتحقق ، وانهم ما خرجوا من سيادة الاتراك الاّ ليقعوا تحت سيادةٍ اخرى ، هاجت في صدورهم حمية الآباء والجدود فهبوا غاضبين لحريتهم ، ثائرين لشهدائهم الذين قتلوا عبثاً في نجدتهم لعساكر المصريين

ومما زاد في نفورهم ان ابرهيم باشا اراد ان ينزع السلاح منهم ، وهو امر مخالف لتقاليد البلاد وعادات

يشده زنار من الكشمير وهو يحمل فيه خنجراً كبيراً ظهر مقبضه بين ثنايا العباز ، يزينه قبضة مرصعة بالحجارة الكريمة وهي بحجم البرتقالة

فابتدرناه السلام على الطريقة المتبعة في البلاد بأن رفعنا يدنا الى جبهتنا ثم وضعناها على جهة القلب. فرد علينا السلام بأدب وابتسامة واشار علينا ان نقترب ونجلس بجانبه على الديوان. وكان ثمة مترجم راكع بيننا وبينه .

فابتدأت الحديث مظهراً ارتياحي الى زيارة تلك البلاد التي كان يحكمها بحزم وكفاءة عظيمين . ومما قلته له ان وجودي هنالك هو أبلغ مدح لحسن ادارته ، فان ما يجده المسافر من أمن في الطريق وغنى في الزراعة ونظام وسلام في المدن ، لأكبر وشاهد على قدرة الامير وحنكته ، فشكرني واخذ يطرح علي اسئلة شتى فيما خص احوال اوربا ، خصوصاً ما كان له علاقة منها بسياسة اوربا في حرب الدولة ومصر ، مما أثبت لي اهتمام الامير الزائد بتلك المسئلة ودلني على معارفه وفهمه للامور ، مما قد لا نجد مثله بين امراء الشرق .

ثم قدموا لنا القهوة والغليون سراراً وطال بنا الحديث ساعة من الزمن ، ولقد راعني ما وجدته في ذلك الشيخ من الحكمة والفهم والهيبة والجلال .

اهلها، فأبوا الامتثال للأمر، فتمكن ابرهيم باشا من نزع سلاح السوريين « لكنه لم يستطع تجريد اللبنانيين »[١] فكان ذلك من العوامل التي وسعت شقة الخلاف بين المصريين واللبنانيين

وفي تلك الاثناء كان المستر « ريشارد وود » مندوب الحكومة الانكليزية في سوريا. فشعر بغليان الافكار وعرف ما يريده اللبنانيون فوعدهم باسم حكومته ان اوربا تعترف لهم رسمياً بامتيازات لبنان وتُقرّهم عليها كلها اذا هم ساعدوا على طرد المصريين. وقد ذكر ذلك الفيكونت دي لاجونكيار في تاريخه عن الدولة العثمانية وأثبته مطولاً المسيو « دي ملفيل » في خطابه في مجلس النواب في جلسة ١٥ حزيران سنة ١٨٤٦.[٢] واقرّ به المستر «وود» نفسه في كتابٍ أرسله الى نجيب باشا في ٣٠ تشرين الاول

---

١ جرجي زيدان: تاريخ مصر الحديث ج ٢ ص ٢٤٣

٢ دي لاجونكيار: تاريخ الدولة العثمانية ج ١ ص ٤٣١
مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان. تعريب فيليب وفريد الخازن ج ١ عد ١٢٩

سنة ١٨٤١ حيث جاء «انه وعدهم بدوام تمتعهم التام بحريتهم الشخصية وبحقوقهم وامتيازاتهم القديمة مكافأةً لهم على خدماتهم العسكرية»[١]

فلم يحجم اللبنانيون والحالة هذه عن القبول بمساعدة تركيا فاجتمع الدروز والنصارى واضرموا نار الثورة في البلاد واقسموا انهم يحاربون المصريين كما حاربوا الاتراك في سبيل حرية بلادهم وكيان أمتهم. وقد اعلنوا انهم يقومون كما قام رجال الثورة الافرنسية الكبرى، ولا يرجعون حتى ينالوا ما ناله اليونان حديثاً من تكسير القيود و بلوغ الاستقلال.[٢]

واليك شيئاً من المستندات الرسمية التي تثبت ما تقدم:

في ٨ حزيران سنة ١٨٤٠ اجتمع اللبنانيون من دروز ونصارى في انطلياس ووقعوا اتفاقية جاء فيها: «انه في يوم تاريخه قد حضرنا الى ماري الياس انطلياس نحن المذكورة اسماؤنا به بوجه العموم من دروز ونصارى ومتاولة واسلام

---

١ مجموعة المحررات ج ١ ص ٧٢

٢ راجع ص ٨١

المعروفين بجبل لبنان من كافة القرى ، وقسمنا يمين على مذبح القديس المرقوم باننا لا نخون ولا نطابق بضرّ احد منا كائناً من يكون . القول واحد والراي واحد ونحن جمهور الدروز اذا حدث منا ادنى خلل نكون بارين من ديانتنا ومقطوعين من شركة الدروز والحظوظ الخمسة وتكون نساؤنا طالقات من السبعة مذاهب ومحرّمة علينا من كافة الوجوه . وايضاً يشهد علينا ماري الياس ويكون خصمنا . وقد أقمنا علينا شيخاً جناب الشيخ فرنسيس ابن جناب الشيخ حنا هيكل الخازن من غوسطا . ونحن جمهور النصارى الذي يخون منا يكون ماري الياس خصمه ولا يكون له موتة على دين المسيح . . »

وفي اليوم عينه نشر « الثوار » اللبنانيون على اخوانهم نشرة سردوا فيها دواعي نهضتهم وثورتهم على الحكومة المصرية واستفزّوهم الى القتال في سبيل استعادة حريتهم واستقلالهم. ومما جاء فيها قولهم : « ان سكان لبنان رغم ما هم فيه من الانفة وروح الاستقلال احتملوا بصبرٍ مظالم السلطة الجائرة مراعاةً

لخاطر الامير بشير الشهابي على امل ان يضمن لهم صبرهم هذا حفظ شرفهم وحريتهم وكيانهم ...

«فلترقدْ بسلام رفات اخواننا الذين ماتوا في سبيل الحرية فانهم ضاهوا بشجاعتهم الفرنسويين الذين عندما هُدّدوا بالاستئصال اذا لم يستسلموا فضلوا الموت فخاضوا غمار الوغى وقتلوا ١٥٠ الف رجل ... وبما ان الموت ينزل بالذين ينتظرونه جبناً في بيوتهم كما ينزل بالذين يقومون لرفع نير الظلم عنهم، فلا تتردّدوا بل فلتتحد اتحاداً وثيقاً ولتنهض بغير خوف فان الاستبداد الذي يهدّدنا هو على وشك ان يهدم وطننا .. ولنكن على يقين تام ان الندامة المتأخرة لا تنقذنا اذا لا سمح الله افترقنا او تردّدنا لحظة طرف عن توحيد قوانا لاستعادة حريتنا. ولكي نسلك بحزم وفقاً لما تقتضيه ظروف كهذه مطبقين عملنا على الحكمة والرزانة الجديرتين بشعب حر مثلنا، يجب ان نعقد اجتماعاً من الرجال المعروفين بعلو المنزلة وسمو المدارك، ويكون قوام هذه الجمعية خمسة رؤساء يُنتخبون باكثرية الاصوات في كل

اقطاعة فيعقدون كلهم او بعضهم مجلساً في مكان مناسب للاتفاق على وضع ادارة منظمة وينتقى عشرة الآف من رجالنا البواسل لمقاومة كل الدسائس والحركات العدائية المسدّدة نحو حريتنا ولتخصص الضرائب ـ التي كان في نية الحكومة استيفاؤها من الذين كانت تريد تجنيدهم لو لم ننهض عليها ـ لشراء المؤن اللازمة للعشرة الآف مقاتل الذين سيقتدون ببسالة المكابيين وقد كان كل فرد منهم يحارب عشرة . فمن كان الحق بجانبه لا يُقهر . ويقتضي ان تكون روابط اعضاء هذا المجلس مع بعضهم متواصلة ليتسنى لنا اتخاذ التدابير العاجلة لحماية مواطنينا المحدق بهم الخطر وانقاذاً لانفسنا من العبودية والظلم ... وقد سبق لليونان ان كانوا احسن قدوة لنا فحصلوا على حريتهم وكان الله معينهم . وان اهالي دير القمر هم في مقدمة من تسلح للدفاع عن دعوانا المقدسة والعادلة ، فليسمع نداؤهم الوطني في كل الانحاء .. اما نحن فان عزيمتنا وطيدة لا تتزعزع : فقد أقسمنا على

استعادة استقلالنا او نموت في هذا السبيل ... »[1]

وقد راعت تلك الحركة الوطنية قناصل الدول فلم يتمالكوا من الاعجاب بنهضة اللبنانيين وبنبالة اخلاقهم وشهامتهم في الحرب :

قال المسيو باذيلي قنصل الروسية في بيروت في تقرير له الى المسيو بوتينيف مندوب الروسية في الاستانة بتاريخ ١١ حزيران سنة ١٨٤٠ : «ان هذه الثورة لخطيرة لان اللبنانيين قد تجنبوا الاستسلام للسلب ، اقتصاراً منهم على مناهضة الحكومة دون ان يلحقوا اقل ضرر بالسكان . ولقد رفع الثوارُ منذ ايام نشرةً الى قناصل الدول مجاهرين باحترامهم الاوربيين واعدين باجازة مرور المؤن اذا كانت مرفقة بتذكرة من القنصلية .. »

« وقد اعاد الثوار لقنصلية انكلترا اكياس المال المرسلة من دمشق وقد كانت نُهبت غلطاً مع اكياس الحكومة . ورأيت اثناء تجولي في ضواحي المدينة عدة مئات من هؤلاء

---

١ مجموعة المحررات ج ١ عدد ٢ و ٣

الثوار تعلو وجوههم سيماءُ العزم والسكون في حين كانت مدافع المدينة تطلق قنابلها على رفقائهم المحتشدين في اماكن اخرى.»[١]

وقد شهد القنصلُ المذكور ان الفضلَ باخضاع سوريا سنة ١٨٣٢ كان مرجعهُ الى اللبنانيين وان خروجهم على ابرهيم باشا سيؤول الى طرد المصريين من كل انحاء سوريا، قال حضرتهُ:

«وكما ان انضمام اللبنانيين الى جيش ابرهيم باشا في سنة ١٨٣٢ قد جر معهُ خضوع كل سوريا فلا يبعد ان ثورتهم اليوم ستؤول الى طرد المصريين نهائياً من هذه البلاد ...»[٢]

ولم يخفَ على محمد علي مافي تلك الثورة من الخطورة وما يترتب عليها من العواقب الوخيمة على جيشه في سوريا، فتملكه من جرائها غضبٌ لا مزيد عليه حتى زُيّن له اليأس ان يحاول ابادة الثائرين على بكرة ابيهم قبل مغادرة البلاد

---

١ مجموعة المحررات ج ١ عد ٤

٢ مجموعة المحررات ج ١ عد ٤ ص ٧

انتقاماً منهم. فعلم قنصل النمسا بنواياه فأقنعه بان لا يقدم على شيء منها فيفقد عطف اوربا عليه.

وقد تبسط في سرد تلك الحوادث كتبةُ ذلك العهد، منهم المسيو هنري هان في رسائله الى جريدة اجسبورج سنة ١٨٤٠[١]

وقد تمّ ما تنبأَ به المسيو بازيلي وتوقعه محمد علي، فغلب ابرهيم باشا واُكره، على اثر تلك الثورة وبعد نكبات متوالية نُكبت بها جيوشه، على التخلي عن سوريا كلها

اما الامير بشير فبات امام تلك الحوادث في مركز دقيق حرج لعهوده مع محمد علي من جهة ولاعتقاده من جهة اُخرى ان فرنسا لا تتخلى عنهما ولا تسمح بضياع استقلال لبنان بعد ان جرى ماجرى بمعرفتها وموافقتها. لذلك لم يُصغِ الى ما عُرض عليه من المواعيد الطيبة له وللبلاد فراح ضحية وفائه واعتماده على حلفائه.

وبيان ذلك انه في ١٤ اغسطس سنة ١٨٤٠ رست

---

١ هنري هان: لوتاس، رسالة ٢٥ تموز سنة ١٨٤٠ ص ٩٨

العمارة الانكليزية النمساوية العثمانية في بيروت بامرة الكومدور السر شارل نابيير لتأييد الجيش العثماني على ابرهيم باشا وحليفه الامير بشير. وثاني يوم وصول العمارة ارسل السر ريشار وود كتاباً سرياً الى الامير بشير يعده فيه بالمحافظة على استقلاله اذا هو تخلى عن محمد علي.[١]

وفي تلك الأثناء كتب ايضاً السر عسكر العثماني سليم باشا الى الامير بشير يخاطبه بالتسليم وارسل له فرماناً مع مندوب يقول له: « ان سلمت للدولة قبل مرور ثمانية ايام تبقَ والياً كما كنتَ بل تكون الولاية لك ولذريتك من بعدك. »[٢] فلم تسمح للامير نخوتهُ اللبنانية بالتخلي عن حليفه ساعة الشدة، لاسيما وفرنسا تؤيده، وعهدُ فرنسا مقدسٌ في لبنان. ففضلَ الاميرُ ان يحفظ عهوده حتى التضحية وهكذا كان فقد اضطرت فرنسا يومئذٍ لاسباب لا محل لذكرها، الى التخلي عن محمد علي وأسقط الملكُ

---

١ مجلة العالمين مجموعة سنة ١٨٤١

٢ الشدياق ص ٦٠٦

«لويس فيليب» حكومة المسيو تيارس الذي كان يريد ان يؤيد بالقوة محمد علي وحليفه الامير بشير، فخلفته حكومة على رأسها المارشال «سولت» و وزير خارجيتها المسيو «جيزو» وهما من طالبي السلم ومريديه على أيّ حال.

وبعد مخابرات ومراسلات طويلة تمّ الاتفاق بين الدول على حفظ مركز محمد علي في مصر.. ولم تدُر الدائرة الاّ على لبنان وعلى اميره الشيخ رغم كل تلك الضحايا التي تحملها اللبنانيون سواء في مساعدة المصريين على فتح سوريا او مساعدة الدولة على طرد المصريين.. واضطر الامير الكبير الى التخلي عن الامارة[1]

---

١ على اثر ذلك نزل الامير بشير الى بيروت فخيره عزت باشا السر عسكر ان يختار داراً لاقامته، فيما عدا بلاد فرنسا وسوريا ومصر، فاختار جزيرة مالطه وسافر اليها

وفي سنة ١٨٤١ أرسل السلطان عبد المجيد فرماناً الى الامير بشير وخيره في الاقامة في مملكته ما عدا سوريا فقام الامير في اواخر ايلول من تلك السنة وسافر بمن معه الى اسلامبول حيث توفي سنة ١٨٥٠ وعمره ٨٤ سنة.

الفصل الثالث

الامير بشير الثالث (١٨٤٠—١٨٤٢)

الحركة الاولى سنة ١٨٤١ . مصطفى باشا نوري في لبنان .

على اثر تلك الحوادث وما حصل في لبنان من اضطرابات وحروب أدّت الى إضعافه ، ظنت الدولة ان الوقت مناسب لالغاء امتيازات لبنان ، فبدلاً من ان تفي بوعدها وتقرّ اللبنانيين على استقلالهم عزمت على الحاق لبنان بالولايات واقامة والٍ تركي عليه

فلما شعر اللبنانيون بمقاصد الدولة نسوا ما بينهم من

وكان للامير هيبة نادرة بقيت في البلاد مضرب مثل ، يدلك عليها الحادث الآتي :

في اليوم الثالث من قدوم الامير الى الاستانة ، أرسل رؤوف باشا الصدر الاعظم يدعوه الى الباب العالي وارسل له خيولا مزينة لركوبه مع اولاده .

الاختلافات واتحدوا جميعاً على الذود عن حقوق بلادهم

وقد بلغ منهم الهياجُ مبلغاً حمل مندوبي الدول على تقديم النصح لتركيا بالعدول عن فكرتها، خصوصاً مندوب الحكومة الانكليزية السر ريشارد وود . فاضطرت الدولة الى اتباع النصح وابقاء الامارة اللبنانية على ما كانت عليه من الاستقلال وعليها اميرٌ شهابي . فاتفقت مع الدول على تعيين الامير بشير قاسم ملحم الشهابي [١] خلفاً للامير بشير الكبير وأصدرت له فرماناً تاريخه ٣ ايلول سنة ١٨٤٠ [٢]

غير ان رضى الدولة بالمحافظة على امتيازات لبنان وبابقاء الامارة للشهابيين لم يكن عن طيبة خاطر، فباتت

وسأل ارباب الديوان الصدر : هل نقوم للامير في السلام، فأجابهم لا نقوم له . فلما دخل الامير نهض الصدر الاعظم اجلالا ونهض الجميع، فحياه الصدر وأجلسه مجلس العظماء فتهيبه الجميع متعجبين مما كان . ثم استأذن الامير وانصرف، فقال بعض كبراء الديوان للصدر الاعظم : لماذا نهضتم للامير بعد أمركم بعدم القيام، فاجاب الصدر : ان في هذا الرجل قوة انهضتني ضد ارادتي فاني لم أرَ في حياتي هيبة في رجل مثل هذا فان كل ما قيل عنه في ذلك صدق . (الشدياق ص ٦١١ و ٦٢١ والغرر الحسان ص ١٠٥١)

١ هو الامير بشير بن قاسم بن ملحم بن حيدر

٢ مجموعة المحررات ج ١ عد ١٥

تتحين الفرص وتجرب كل الوسائل للقضاء عليها فملأت اعمالها هذه كلّ تاريخ لبنان منذ سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٦٠

فكانت من ثمّ فتنةُ سنة ١٨٤١ ومحاولة تركيا على اثرها تعيين علي باشا حاكمًا على لبنان ، ثم بعثةُ السر عسكر مصطفى نوري باشا الى لبنان واحتياله على خلع الامير بشير الثالث وتعيين عمر باشا النمساوي مما أدى الى ثورة البلاد واحتجاج الدول .

ثم بدعة القائمقاميتين ، ثم فتنةُ سنة ١٨٤٥ و بعثة شكيب افندي ، ثم الحوادث المشؤومة المعروفة « بحركة سنة الستين »

*

الحركة الاولى (سنة ١٨٤١)

رأت الدولة انه ما دام اللبنانيون متحدين رغم اختلاف طوائفهم فلا سبيل الى إلحاقهم بالولايات فعمدت الى اثارة عواطف التعصب بين الدروز والنصارى وما زالت بهم حتى وقعت حوادث سنة ١٨٤١ وهي اول مرة عرف فيها اللبنانيون المنازعات الدينية والحروب الطائفية بعد ان عاش

الدروز والنصارى في لبنان اخوانَ صفاء اجيالاً طوالاً ، وقد أثبتت المكاتبات الرسمية مسؤولية تركيا في حوادث لبنان ، وفي ايراد شيء منها كفاية

من ذلك مذكرة المستر وود الى نجيب باشا في ٣٠ ت ١ سنة ١٨٤١ حيث جاء: «من المحقق ان السوريين عامةً اصبحوا يعتقدون ان هذه الاعمال هي من الحكومة العثمانية ذاتها.» ثم استطرد الى ذكر سبب اعتقادهم هذا فقال: «أرى ان نزع السلاح من اهالي حاصبيا وراشيا وزحله في لبنان وانتيلبنان هو تعدٍّ على حريتهم وامتيازاتهم ومغائرة تمام المغائرة للوعود الصريحة التي ابلغتهم اياها باسم الحضرة الشاهانية.» الى ان قال: «ان نزع السلاح من يد السوريين عامةً امرٌ مرغوب فيه ... بيدَ انا رأينا هذه الوسيلة مقصورة على مسيحيي لبنان وانتيلبنان في حين انه سُمح لسائر أتباع الباب العالي بحفظ اسلحتهم.»[١]

وجاء في نطاقة اجماعية أنفذها كل من قنصل فرنسا

---

١ المحررات ج ١ عد ٤٢

وبريطانيا العظمى والروسية في بيروت الى سليم باشا في ت ٢ سنة ١٨٤١ « انه من الثابت ان الدروز أُمدّوا بذخائر وافرة مرسلة من دمشق رغماً من تنبيه القناصل المقيمين في هذه المدينة صاحبَ الدولة نجيب باشا تكراراً الى وجوب منعها . »[١]

الى آخر ما هنالك من الادلة والبراهين .. وقصدُ تركيا من هذه الفتن ان تثبت صحة دعواها من ان الامراء اللبنانيين عاجزون عن حكم البلاد فيتحتم فصلهم عن الامارة وابدالهم بوالٍ تركي وادغام لبنان بالولايات

وبناءً عليه قرّرت تعيين علي باشا والياً تركياً على الجبل. وقد كان السر ريشارد وود مسموع الكلمة لدى ولاة سوريا ، فلما شعر بما تنويه الدولة علم ان تلك السياسة وخيمة العواقب لوقوفه على حقيقة اخلاق اللبنانيين وعلمه انهم مهما اختلفوا في مسائلهم الداخلية فهم لا يسمحون لأحد بمسّ

---

١ المحررات ج ١ عدد ٤٥

امتيازاتهم ، فكتب الى سليم باشا والي صيدا في ٢٨ ت ١ سنة ١٨٤١ كتاباً يحذّره فيه سوء العاقبة جاء فيه ما ترجمته :

« يجب ان تعتقد دولتكم جيداً ان الجبليين عموماً لا يسمحون ابداً ان يحكم لبنانَ باشا تركي لان ذلك يُنافي امتيازاتهم القديمة التي اعترف بها الباب العالي وأيدها مؤخراً . ومن المحتمل كثيراً ان يمانع اللبنانيون بتنصيب علي باشا فاذا حاربوه او طردوه من الجبل سقطت هيبة الباب العالي »[١]

مصطفى باشا نوري في لبنان

رات الدولة ان تلك الطريقة لم تنجح فعمدت الى سواها ، فأرسلت الى لبنان مصطفى باشا نوري السر عسكر بدعوى تهدئة الحال واشارت عليه وعلى الولاة ان يلبسوا ثياب الحملان ويظهروا بمظهر الاشفاق على اللبنانيين ولبنان .

---

١ مجموعة المحررات ج ٢ عد ٤٠

فوصل مصطفى باشا الى لبنان وارسل رسلاً في البلاد لاغواء اللبنانيين بقبول ولاية الدولة عليهم مُبينين لهم من جهة ان ذلك هو الدواء الوحيد لما في الصدور من حزازات وفي الطوائف من منازعات ، ومُفيضين من جهة اخرى بشرح الفوائد التي يجنيها لبنان من اندغامه في دولة كبيرة عزيزة الجانب يكون لابنائه فيها مُتسع لاظهار كفاءتهم واقتدارهم بدلاً من انزوائهم في جبالهم وصخورهم الجرداء ..

فلم تكن بهرجة البيان لتغرّ اولئك اللبنانيين الصميمين ذوي النفوس الشماء والوطنية الصحيحة فلم يتخلوا قيدَ شعرة عن امتيازاتهم ولم يفرّطوا بشيء من حقوق بلادهم ، مفضلين حفظ كيانهم القومي في وطنهم اللبناني ، على كل مناصب الدول وخيرات العالم ، عالمين ان حياتهم القومية موقوفة على الاحتفاظ بمركز لبنان الخاص وبالوحدة اللبنانية التاريخية [١]

---

١ وقد دعي اللبنانيون الى مثل ذلك على اثر اعلان الدستور العثماني فكان موقفهم سنة ١٩٠٩ كموقف آبائهم وجدودهم سنة ١٨٤١ ...

وقد ذكر الشدياق وهو شاهد عيان لتلك الحوادث وكان له فيها شأن: «ان اللبنانيون قدّموا في احتجاجهم هذا معروضات الى الدولة والى وكلاء الملوك الاربعة في اسلامبول .. وان مصطفى باشا اخذ يتملقهم ليرتضوا بولاية الدولة فأبوا .. »[١]

وكانت حوادث سنة ١٨٤١ قد زعزعت ثقة الاهالي بالامير بشير قاسم ملحم الشهابي فاغتنم مصطفى باشا المذكور هذه الفرصة فاستدعى الامير اليه وكلفه السفر الى الاستانة بدعوى التقرير عن حوادث تلك السنة المشؤومة. فسافر الامير والمبنانيون غافلون عما يُراد بهم ومصطفى باشا يطمأنهم ويطيب خاطرهم نفياً للريب والشكوك حتى انه استدعى فريقاً منهم وطلب منهم ان يتفقوا على رجل يُولّى عليهم برضاهم

ولما آنس من الناس سكوناً واطمئناناً خلعَ عن جسمه

---

١ الشدياق ص ٦٤٠

ثوب الحمل وفاجأ اللبنانيين باقامة «عمر باشا» النمساوي العثماني حاكماً على الجبل بمقتضى فرمان تاريخه ١٥ ك ٢ سنة ١٨٤٢ ، وارسله بعسكر الى بيت الدين

obeikandl.com

الفصل الرابع

عمر باشا في لبنان (١٥ ك ٢ سنة ١٨٤٢ — ايلول سنة ١٨٤٢) [١]

لم يكد يستلم عمر باشا حكومة الجبل حتى افاق اللبنانيون من غفلتهم وفهموا ان الضربة لم تكن للامير بشير قاسم شخصياً بل بالاحرى لاستقلال البلاد. فهاجت خواطرهم وقدموا « المعاريض » الى قناصل الدول محتجين على تولية حاكم أجنبي عليهم خلافاً للمعتاد من قديم الزمان . وسرت من ثمَّ في البلاد روحُ الثورة فبادر القناصل الى اطلاع سفرائهم في الاستانة على واقع الحال فخابر السفراء الباب العالي تلافياً للامر قبل استفحاله :

---

١ عمر باشا نمساوي الاصل من كراوتيا . ولد سنة ١٨٠٦ من والدين ارثوذكسيين ثم لجأ الى البشناق حيث اعتنق الدين الاسلامي ثم دخل في الجندية العثمانية فبلغ فيها مرتبة سامية .

من ذلك ما جاء في تعليمات المسيو ستراتفورد كانين سفير انكلترا في الاستانة الى المسيو بيزاني ترجمان السفارة الاول بتاريخ ٩ شباط سنة ١٨٤٢ :

« اتصل بنا ان الامير بشير قاسم عُزل فجأةً بامر استبدادي ... وان السر عسكر مصطفى باشا عين باشا مسلماً مكان الامراء عاهداً اليه بالسلطة المختصة بهم ، وهو اليوم في دير القمر بصفة والٍ على لبنان مما لم يسبق له مثيل ، وذلك مناقض للوعود المسجلة وخارق للامتيازات المقرّرة منذ عدة قرون .. واذا ثارَ اهالي الجبل واضطر السر عسكر الى استعمال القوّة يزيد في غضبهم ، ويُرجح ان حراجة موقفه تجعله ينشب في قتال تكون الارجحية فيه الى خصومه فيعرض شرفَ سلطانه لعار الانكسار... » [١]

فاضطر صارم افندي ناظر الخارجية امام هذه الاحتجاجات ان يهدّئ بال السفراء فابلغهم في ١٧ اذار سنة ١٨٤٢ « ان الباب العالي لا يتشبث بابقاء عمر باشا والياً

---

١ مجموعة المحررات السياسية ج ١ عد ٤٨ .

على لبنان وانما كان تعيينهُ من قبل السر عسكر مراعاةً لظروف الحال وان الباب العالي قرر ان يرسل الى لبنان سليم بك عاهداً اليه بالوقوف على حقيقة الحال وتقديم تقرير بذلك »[١]

وكان يقصد صارم افندي من ارسال سليم بك الى الجبل ذر الرماد في العيون وتسكين الخواطر لاتغيير سياسة الباب العالي فعلاً . فلما وصل سليم بك الى لبنان اتفق مع مصطفى باشا على افساد الحقيقة واثبات ما يخالف الواقع فصلا بالوعد والوعيد والترغيب والتهديد على عرائضَ وقعها بعض الاهالي يطلبون فيها تعيين والٍ تركي عليهم والتنازل عن امتيازاتهم وقد بلغ الامرُ بمصطفى باشا وسليم بك المذكورين انهما زوّرا اختاماً عديدة ليوهما ان الاغلبية في لبنان تطلب الانضمام الى الولايات وقد أُرسلت هذه العرائض الى الباب العالي فعرف بها السفراء بطريقة غير رسمية فاستغربوا تنازلَ اللبنانيين عن استقلالهم وهم قد

---

١ مجموعة المحررات ج ١ عد ٥٠

دافعوا عنه أبدَ الدهر ، كما ان صوت احتجاجهم على تعيين عمر باشا لم يكد يخفت بعد ، فلا يُعقل ان ينقلب رأيهم بين عشيةٍ وضحاها ويصبحوا وهم يطلبون تولية مَن احتجوّا عليه بالامس .

لذلك طلب السفراء من قناصلهم في بيروت ان يوافوهم بالاخبار الصحيحة عن احوال لبنان جلاءً لتلك المناقضات . فبادر القناصل وارسل كل منهم تقريراً الى سفيرهِ ، على غير سابق اتفاق بينهم ، واذا بالتقارير كلها مجمعة على ان الحقيقة هي ان اللبنانيين لا يرضون ابداً بالتنازل عن امتيازاتهم واستقلالهم وان العرائض التي أُرسلت الى الباب العالي أُخذ بعضها بالوعد والوعيد وزوّر منها البعضُ الآخر

على اثر ذلك اجتمع سفراء انكلترا وفرنسا وروسيا وبروسيا والنمسا في ٢٧ ايار سنة ١٨٤٢ عند صارم افندي ناظر العدلية ومعه ظاهر باشا ناظر البحرية ، ولم يكن يعلم صارم افندي بما سبق للسفراء اتخاذُهُ من الاحتياطات للوقوف على الحقيقة فأراد ان يسرد الحوادث على هواه ويفاجئهم

بالعرائض تأييداً لسياسة الباب العالي ومنعاً لتدخل الدول في شؤون لبنان :

قال صارم افندي : «انه لما كانت قد حدثت اضطرابات في جبل لبنان رأى الباب العالي من الموافق ارسال السر عسكر مصطفى باشا الى ذلك الصوب منذ نحو ستة اشهر ووكل اليه الاشراف على حالة الشؤون واتخاذ التدابير والتحوطات المناسبة فخلع السر عسكرُ الاميرَ بشير قاسم من منصبه وارسله الى الاستانة وولّى مكانه عمر باشا وان ممثلي الدول الخمس احتجوّا على عدم موافقة العمل وطلبوا ان يحسب هذا التعيين وقتياً وألحوا ايضاً بوجوب حفظ طريقة الاحكام القديمة ونصحوا الباب العالي ان يُعيد الحكم الى الاسرة الشهابية، وانه على اثر هذه المساعي أبلغ هو الممثلين المشار اليهم اعتماده على ارسال مندوب الى سوريا مفوض بالتحري عن مجرى الامور حتى بعد عودته تُتخذ طريقة الحكم الواجب وضعها في لبنان . وان سليم بك قام بالمهمة الموكولة اليه ورفع للباب العالي بياناً

عن نتيجتها مشفوعاً باربع عرائض موقعة من المشايخ الموارنة وغيرهم من اهالي جبل لبنان . »

فلم تُحدث تصريحاتُ صارم افندي التأثيرَ الذي كان ينتظره منها على السفراء بل ردّ عليه سفيرُ انكلترا مفنداً زعمهُ ومبطلاً حجته ، قال السفير:

« ان البيانات التي أُنفذت اليه من سوريا مخالفة للتي تلقتها الحكومة العثمانية. وزاد ان تلك البيانات التي عنده تثبت ان العرائض التي أرسلها مصطفى باشا استحصلت بالوعد والوعيد وان لديه ما يدعوه الى الاعتقاد ان رصفاءه تلقوا من قناصل دولهم رسائل مماثلة لهذه ، فصدّق سائر السفراء على قوله. »

« فاجاب ناظر الخارجية ان العرائض التي تُليت في الجلسة تثبت صدق تقارير السر عسكر باشا ... فردّ ممثلو الدول الخمس اقوالَ ناظر الخارجية باجماع القناصل على رواية واحدة ، واوضحوا للنظار العثمانيين ان العرائض التي تُليت عليهم مقصورة على تواقيع قليلة وانه من المشهور انها أُخذت

بوسائل الارهاب والوعود ... ثم قُرئ كتاب مسهب يشتمل على تفاصيل وسائل التمليق والعنف التي التجئ اليها لحمل بعض زعماء لبنان على توقيع العرائض المذكورة وابانوا لناظر الخارجية انه بدون الوسائل المار بيانها يتعذّر التصديق ان اهالي جبل لبنان بدلوا رايهم بهذه السرعة وتناسوا عوائد قديمة وامتيازات هم شديدو التمسك بها حتى انه من برهة وجيزة طلبوا باجمعهم غير مرة بلهجة حازمة وبالحاح شديد حفظها . »

ثم قرأ وكيل سفارة النمسا ملخص رسالة سمو البرنس دي مترنيخ بتاريخ ١٧ ايار سنة ١٨٤٢ فاذا بها ترمي ايضاً الى وجوب العودة الى طريقة الحكم القديم

ثم استانف السفراءُ والنظارُ الكلام عن امتيازات اللبنانيين من قديم الزمان فاورد ممثلو الدول عدّة ادلة معزّزة بشواهد تاريخية « ان السلاطين الاكثر بطشاً وشوكة قد طالما راعوا في ابان عزهم جانبَ اللبنانيين وامتيازاتهم . »[1]

---

١ ملخص المفاوضة التي دارت بين ناظر الخارجية العثمانية وممثلي الدول

فلم يُصغِ الباب العالي الى نصح السفراء بل أبقى عمر باشا والياً في لبنان فبات هيجان الخواطر يزداد يوماً بعد يوم حتى أصبح الجبل كأنه الهشيم اليابس فلم تكد تقدح فيه شرارة صغيرة حتى اشتعلت جوانبه واندلع لهيبها في كل انحائه .

وقد كان ظهورها في كسروان حيث اتهم مشايخ بيت الدحداح بايقادها فحسبت الدولة بادئ ذي بدءان الأمر مقتصر على افراد معدودين يمكنها كبح جماحهم بالقوة واطفاء النار بسهولة ، فارسلت في الحال عسكراً للقبض على الدحادحة فقاموا من وجهه الى الشمال فطاردهم العسكر حتى جبة بشراي ، وكان حديثهم قد سرى في البلاد وعرف اللبنانيون سبب فرارهم ولحاق الجند بهم ، فهبّ اهالي الشمال وفي مقدمتهم اهل اهدن وبشري هبة الابطال غضاباً لقومهم وحريتهم فتصدوا للعسكر وانتشبت بينهم الحرب فظفروا

الخمس في الجلسة المعقودة في ٢٧ ايار سنة ١٨٤٢ . عن مجموعة المحررات الرسمية ج ١ عد ٥٥

بالعسكر وكسروه فولى الادبار منهزماً الى طرابلس وغنم اهالي الشمال خيلهم واسلحتهم وامتعتهم .

ومما يثبت ان ذلك الشعور الوطني لم يقتصر على فريق من اللبنانيين دون فريق وعلى جهة دون اخرى هو ان الثورة لم تنحصر في كسروان والشمال بل تعدّتهما الى سائر انحاء الجبل : فما كاد يبلغ الدروز ما فعله اهالي جبة بشراي واهدن حتى هاجوا هم ايضاً طالبين حرب عمر باشا

فلما رأت الدولة ان الجبل كله في هياج وان الدروز والنصارى متحدون على خلع الحاكم التركي ، فهمت ان الامر خطير والموقف حرج فخشيت سوء العاقبة فتلافتها بأن فصلت عمر باشا عن لبنان في ايلول سنة ١٨٤٢ .

ولم تقتصر على ذلك بل زادت في التودّد الى اللبنانيين وفي مجاملتهم فعادت واعلنت ، تسكيناً للخواطر ، انها تعترف بحقوق اللبنانيين بانتخاب من يشاؤون والياً عليهم وقد ارسلت الى لبنان وكيلين من قبلها يكتبان اسماء

الذين يرشحهم اهل لبنان للامارة .[1]

وهكذا انتهت ولاية عمر باشا على لبنان ، وهي وان لم تستمرّ الا بضعة أشهر غيرَ انها كانت في الواقع فاتحةَ عهدٍ جديد في حياة لبنان السياسية : ففقدَ الجبلُ منذ ذلك الحين « وحدةَ إمارته » ونالت تركيا بعض غايتها فلم تُبقِ في لبنان « أُسرةً مالكة ». وكان ذلك آخر عهد الشهابيين بالحكم في لبنان[2]

---

١ الشدياق ص ٦٤٢

٢ وفي ذلك تقول العامة : « اولها بشير واخرها بشير » اشارة الى ان اول امير شهابي وُلي على لبنان كان الامير بشير الاول واخرهم الامير بشير الثالث.

الباب السابع

لبنان على عهد القائمقاميتين

٧ ك ١ سنة ١٨٤٢ الى ٩ حزيران سنة ١٨٦١

بدعة القائمقاميتين . حوادث سنة ١٨٤٥
ثورة الاهالي في كسروان . حركة ١٨٦٠ . تدخل اوربا في لبنان

ذكرى وعبرة

اذا وقعت في بلدٍ حوادث خطيرة من فتنٍ داخلية وحروب «اهلية» تُبلبلُ حياةَ الامة ، فقد يتعذّر على العامة من معاصري تلك الحوادث ومشاهديها مشاهدة عيان ان يتبينوا اسبابها ويحكموا على مقدماتها ونتائجها حكماً صحيحاً ، فيكونون في الغالب عرضة المؤثرات المحيطة بهم ، لا يرون

من الحوادث الا حاضرها ضاربين صفحاً عن مسبباتها وعاجزين عن الوصول الى نتائجها في حين ان لكل حادث مقدمات يترتب عليها وقوعه فتنتج عن وقوعه نتائج تجهلها العامة وقد لا تخفى على الخاصة. ومتى حصل ذلك تشبث الشعب بالعرض ونسي الجوهر فيضيع عن محجة الهدى ويعمى عن الحقيقة ، فيناله في حياته القومية ضرر قد لا تكفي الاجيال لازالته

وهذا ما حصل في لبنان في الفترة المنقضية بين سنة ١٨٤٠ وسنة ١٨٦٠ ..

لم ترَ العامةُ يومئذٍ في تلك الحوادث الا ما وقع تحت اعينها ، ولم يقع تحت اعينها الاّ اقتتال بين الدروز والنصارى وسلسلة ملاحم سالت فيها الدماء انهاراً ، فاستنتجت العامة ان الدروز والمسيحيين هم بحكم الطبع اعداء لا يتفقون ، وسهي عن بالها انهم قبل ذلك العهد قد عاشوا الاجيال الطوال على اتمّ وفاق واصفى اخاء .

فاذا قرأ اليوم عقلاءُ اللبنانيين صفحةَ تلك الحوادث

المشؤومة، ومرّت امام اعينهم في لمحة بصرٍ مدةُ تلك السنين العشرين، وهم بعيدون عن مؤثراتها، خالون من تبعتها، راعتهم فظاعة ذلك الشرك الذي نصبتهُ الدسائسُ في لبنان ووقع فيه آباؤهم وجدودهم

واذا تبينوا اسباب تلك الحوادث وفقهوا مقدماتها ونظروا الى نتائجها، وجدوا ان عليهم واجباً مقدساً لوطنهم: ان يصونوا يومهم عن امثالها ويدرأوا عن مستقبلهم شرّ الوقوع في فظائعها، وليس من دواءٍ لذلك الداء الاّ في قطع دابر الدسائس والتفريق.

والحكيم من اتعظ بأمسه ليومه وبيومه لغده، فيعلم اللبنانيون قاطبة انهم، وهم متضامنون في قوميتهم، اصلب قناةً على الغامزين. وانهم، وهم متفقون في بلادهم، أبرُّ بعضهم من سواهم بهم. وانهم على كل حال اسلم عاقبة لوطنهم وأبقى.

فليطلع اللبنانيون على تلك الحوادث لا من حيث انها تعيد الى الذهن ذكرى مؤلمة، بل من حيث هي امثولة رشيدة

في عقبى التفريق المذهبي ونتيجة التحزّب الديني ، فيقابلوا بين ضعف لبنان وهوانه بعد سنة ١٨٤٠ ، وبين عزّه وسلطانه قبل ذلك التاريخ. ويعلموا منّ جهة اخرى انّ تدخل اوربا في لبنان من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٨٦٠ لم يُغنهم عن التضامن شيئاً ، وان الداء اذا كان في النفوس فلا تفعل فيه المسكنات الخارجية.

تلك هي العبرة الكبرى التي تُستخلص من سلسلة هذه الحوادث عظةً وهدى للوطنيين المخلصين! ..

الفصل الاول

اتفاق ٧ ك ١ سنة ١٨٤٢ . الحركة الثانية سنة ١٨٤٥

شكيب افندي في لبنان

اتفاق ٧ ك ١ سنة ١٨٤٢

رأت الدولة بعد حادثة عمر باشا انه لا يسهل عليها ان تقيم فوراً والياً تركياً على لبنان فارجأت ذلك الى وقتٍ انسب ، غير انها وضعت نصبَ عينها غايةً باتت محورَ سياستها في لبنان الا وهي نزع الحكم من الشهابيين . وقصدها من هذا العمل ان لا تُبقي في الجبل «اسرةً مالكة» تكون عنوان استقلال البلاد .

وكان ان رجعت فرنسا الى نفسها فرأت انها لم تؤيد الامارة اللبنانية حق التأييد في ازمة الامير بشير الكبير ،

وهو لم يسقط الاّ لاحتفاظهِ بعهد محمد علي مدفوعاً الى ذلك بسياسة فرنسا[1] . فرأت ان تعوض مما فات فارسلت الى سفيرها في الاستانة «البارون دي بوركني» ان يؤيد طلب اللبنانيين فيتشبث باعادة الامارة اللبنانية الى ما كانت عليه من الوحدة والاستقلال . فذُعرت الدولة من طلبه بعد ان عملت ما لا يعمل حتى تهدم صرح تلك الامارة. فاستنجدت سفراءَ الدول على سفير فرنسا وما زالت بهم حتى استمالت فريقاً منهم اليها . ولما طال الامر بالسفراء ولم يقرّوا على راي ، اقترح احدهم ، حلاًّ للمشكلة ، ان يقسم لبنان الى قائمقاميتين : نصرانية وعليها امير مسيحي من غير الشهابيين ، ودرزية وعليها امير درزي

فرضيت الدولة بذلك الاقتراح ، شرطاً ان لا يُحيوا لها شبحَ الامارة اللبنانية القديمة

وقد تمّ شطر الجبل على هذا الشكل بموجب اتفاق تاريخه ٧ ك ١ سنة ١٨٤٢ ، من مقتضاه ان باشا صيدا يعين

---

١ لامرتين : خطابه في مجلس النواب . المحررات ج ١ ص ٢٦٧

القائمقامين من اهل لبنان ويكون لهما السلطة الكافية في ادارة الامور الداخلية

وقد وُلِيَ فعلاً الامير حيدر اسماعيل اللمعي قائمقامية النصارى ، والامير احمد ارسلان قائمقامية الدروز [١]. فكانت هذه البدعة الجديدة في شكل الحكومة اللبنانية اكبر صدمة لاستقلال لبنان. وقد اضطرت الحكومة الافرنسية يومئذٍ الى القبول بها مكرهة ، اما البرلمان الفرنساوي فشعر بما في شكل الحكم الجديد من الحيف على لبنان فأبى التصديق عليه ، وصرّح «بوجوب الرجوع الى ادارة حكمٍ تكون مطابقة لاماني اهل لبنان» [٢]

وعلى كلٍ فحلُّ المسئلة على هذا الشكل لم يرض احداً من الفريقين:

فهو من جهة لم يرض الدولة لان غرضها نزع الحكم من اللبنانيين وتعيين القائمقامين من الاتراك [٣] ، او على الاقل

---

١ المحرارت ج ١ عد ٦١
٢ » » ١ » ١٣٨
٣ » » ١ » ٦١

تضييق سلطتهما بحيث يصبحان آلةً في يد والي صيدا

وهو من جهة اخرى لم يُرضِ اللبنانيين ومؤيدتهم فرنسا لتشبثهم باعادة الامارة الشهابية على الجبل.

فاعتبر الفريقان تلك الطريقة وقتية وباتا يرقبان الفرص لنقضها، كلٌّ على هواه

وقد استنتج اللبنانيون يومئذٍ ان تدخلَ الدول الاوربية في لبنان أضعف حقوقهم بدلاً من ان يزيدها. من ذلك ما جاء في احتجاج رُفع باسمهم الى الدول في ٢٩ ك ١ سنة ١٨٤٣، على اثر سلخ بلاد جبيل عن ادارة الامير حيدر والحاقها بحكومة طرابلس وجعلها تحت سلطة باشا تركي، فقد جاء فيه: «اذا سكتت الدولُ عن هذا الاغتصاب الجديد لا يبقى لمسيحيّ لبنان الاّ ان يختاروا بين امرين: إما الاقدام على حماية مهد أمتهم المقدس مستميتين في هذا السبيل عاقدين رايات الحرب على حكومة الباب العالي، إما هجر وطنهم العزيز الذي صدوا عنه هجمات الاعداء في الزمان السابق. بيدان هذا الشعب لا يسعهُ الافتراض ان تدخل

الدول المسيحية العظمى في سوريا يؤول الى جعله في هذا الموقف الحرج او تكون النتيجة فوز الاتراك في لبنان .. [١]

فلم تشأ الدول ان ترمي اللبنانيين في مهاوي اليأس فايدت احتجاجهم فأعاد البابُ العالي بلادَ جبيل وملحقاتها الى لبنان [٢]. وقد حذّر سفيرُ انكلترا البابَ العالي من تهوره في انكار حقوق اللبنانيين وصرّح له بان ليس لتركيا الحق بالتعرض لشؤون لبنان الداخلية. قال السفير ما ترجمته «ارى انه يتعذّر انكار حق اللبنانيين الثابت بادارة شؤونهم الداخلية على يد وُلاتهم الوطنيين ...» [٣]

*

الحركة الثانية سنة ١٨٤٥

لم يُعر ولاةُ سوريا النصحَ اذنًا صاغية بل ظلوا يدسون

---

١ المحررات ج ١ عدد ٦٤
٢ » » ١ » ٦٨
٣ » » ١ » ٨٢

الدسائس ويحركون عوامل التعصب بين الدروز والنصارى جرّاً للمشاكل والاضطرابات في الجبل، حتى يُثبتوا للعالم انهُ يتعذّر استتباب الامن في لبنان ما دام عليه حكامٌ من الوطنيين، وان العلاج الوحيد هو تعيين حاكم تركي على البلاد. وقد ساعدتهم بدعة القائمقاميتين على بلوغ امنيتهم. فان هذه الطريقة، بجعلها الدين اساس الحكم في الجبل، قد قطعت روابط الوحدة القومية وفككت عرى الاتحاد الوطني بين الدروز والنصارى فبدلاً من ان يظلوا معتبرين انفسهم لبنانيين قبل كل شيء كما كانوا في الماضي، انشقّ الجبل شطرين: درزيا ومسيحياً، وهو غاية ما كانت تطمح اليه تركيا..

ولما رأى عمال الدولة ان مازرعوه في النفوس من بذور التعصب قد نمى، اوغروا صدورَ بعض الرعاع وكلفوهم اضرام الشرارة الاولى من النار، حتى اذا اشتعلت تركوها تمتدّ وتقوى الى ان التهمت انحاء الجبل وتعدّتها الى الولايات السورية بين المسلمين والنصارى: تلك هي سياسة «فرّقْ تسدْ» التي لم ينتبه لها اللبنانيون الاّ بعد وقوعهم

في نتائجها الفظيعة فكان ما كان من حوادث سنة ١٨٤٥ .
وقد اثبتت المكاتبات الرسمية انّ الذنب كل الذنب فيها كان على الحكومة التركية لا على الشعب كما سبق حصوله سنة ١٨٤١ : من ذلك ما جاء في كتاب ارسلهُ زعيمٌ من زعماء الدروز في تلك السنة الى كبير منهم يطمأنهُ فيه الى عاقبة القتال بقولهِ : « لا تخافوا لانهُ قد كُتب امرٌ الى حامية عبيه بمساعدتكم .. » وكتب ايضاً الى مشايخ اقليم الخروب واعيان المسلمين يقول لهم : « ان الباب العالي قد جاد وسمح لنا بمهاجمتها (الامة المسيحية) وان دولة افندينا داود باشا المعظم قد فوض الينا محاربتها وساعدنا عليها بجنوده السلطانية .. فنزيد من همتكم وبسالتكم ان تسرعوا حالاً وتهاجموا الدبية لان الجالية التي فيها قد برحتها بامر مصطفى بك .. فلا تخشوا شيئاً لاننا نحن والباب العالي يدٌ واحدة في هذه المسئلة وهذا كافٍ لطمأنينتكم وبهِ غناية عن اطالة الشرح .. »[1]

---

١ أثبت هذين الكتابين المسيو بوجاد قنصل فرنسا في بيروت في كتابه

ولم يكن كلام ذلك الزعيم الدرزي عن تعصب طائفي وحقد مذهبي بل كان مدفوعاً اليه من ولاة سوريا وموظفيهم الذين ذكرهم والبرهان هو انه على اثر تلك الحوادث ارادت الدولة ان تتنصل من المسؤولية فسجنت من سجنت في ثكنة الجنود في بيروت ومن ضمنهم ذلك الزعيم فذهب لعيادته الكونت غندور بك السعد لاعتقاده أنهُ كان محمولاً على فعل ما فعل . وقد روى الكونت انه في خلال الحديث قال له الزعيم الدرزي : « انتم حاسبينها ونحن حاسبينها وكلانا وقعنا فيها »[1]

وجاء في رسالة للمسيو غيزو الى سفير فرنسا في الاستانة بتاريخ ايار سنة ١٨٤٥ ما ترجمته: « ان هذه الجنود (العثمانية) .. غمست يدها في دم المسيحيين في ظروف عديدة وأتت اعمالاً بربرية بحيث لم يبقَ ادنى شك في تآمر

عن لبنان وسوريا ص ٢٤٧ ــ ٢٤٩ وعلق عليها ان الشيخ المشار اليه كتبهما في بدء فتنة سنة ١٨٤٥ فوقعا بين يديه وسلمهما الى وجيهي باشا مشير ايالة صيدا فاعترف بصحتهما .

١ المحررات ج ١ ص ١٨٢

الباب العالي مع اعداء الموارنة .. »[1]

ولم يخفَ يومئذٍ على اللبنانيين سبب الاضطرابات الحقيقي فرأوا ان المفسدين قد لعبوا بهم وجرّوهم الى تلك المذابح الاهلية فسعى عقلاء الدروز والنصارى الى اصلاح ذات البين فوجدوا من طيب اخلاق الشعبين الكريمين اكبر مساعد على نسيان الماضي، فعقدت بين مندوبي الدروز والنصارى وثيقة تاريخ ٢ يونيو سنة ١٨٤٥ تعهد فيها الفريقان بالرجوع الى الصلات الودية القديمة « ليعيشوا بكمال الوئام مراعين واجبات الجوار وناسين الماضي ماحين كل ما وقع بينهما من سجلّ الكوائن .. »[2]

وقد زادت تلك الحوادث اعتقادَ اللبنانيين ان الدواء الوحيد لذلك الداء انما هو اعادة الامارة اللبنانية الى ما كانت عليه من الوحدة والاستقلال

وقد ابلغ اللبنانيون طلبهم يومئذٍ الى اوربا فاهتمت

---

١ المحررات ج ١ عد ١١٠

٢ « ج ١ « ١١٣

مجالسها النيابية بالامر وطرحت مسئلة لبنان على البرلمان الافرنسي في جلسة ١٥ تموز سنة ١٨٤٥ فعنفَ الكونت دي كاترباوب وزارة المسيو غيزو واتهمها بالضعف وعدم قيامها بالواجب نحو اللبنانيين فاجابه المسيو غيزو وزير الخارجية واعترف بمسؤولية السلطة التركية في الحوادث وصرح بان فرنسا لا تفتر عن مساعدة اللبنانيين في تحقيق امنيتهم وانها لا تتحوّل عن سياستها القديمة المعروفة من المطالبة باعادة امارة لبنان الى ما كانت عليه[1]

وفعلاً بذلت الحكومة الافرنسية جهدَها في سبيل اعادة الامارة اللبنانية والغاء اتفاق ٧ ك ١ سنة ١٨٤٢ ، فلم تجد التعضيدَ الكافي من سائر الدول

وقد استفاد الباب العالي من تفرق الكلمة فتبرأ مما حصل في لبنان ملقياً تبعته على عاتق المامورين في سوريا وابلغ الدول انه اثباتاً لحسن النية قد انتدب السلطان عبد المجيد وزيرَ خارجيته بالذات شكيب افندي

---

١ المحررات ج ١ عد ١١٤ ومابلي

موفداً خاصاً الى سوريا لاجراء النظام وتسكين الحال [1]

شكيب افندي في لبنان

وصل شكيب افندي الى بيروت في ١٤ ايلول سنة ١٨٤٥ وطلب من ممثلي الدول ان لا يتعرضوا له في شي متعهداً بعمل كل ما يلزم لتهدئة الخواطر والقاء السكينة وترتيب الحكومة . وقد بادر فور وصوله الى ابعاد رعايا الحكومة الاجنبية من لبنان حتى لا يكون لدولهم سبيل الى التدخل في حال من الاحوال، وملأ البلاد عسكراً نظامياً وأمر بنزع السلاح مؤكداً في الوقت ذاته للبنانيين: « ان نزع السلاح من ايديهم لا يُراد به مس امتيازاتهم القديمة » وما زال يطمأن خاطر اللبنانيين من جهة ويُطلي على ممثلي الدول من جهة أخرى حتى تمكن بعد مخابرات ومفاوضات لا محل لذكرها الى ذرّ الرماد في العيون فسادت الفكرة ان الحال قد هدأت على احسن منوال

---

١ المحررات ج ١ ص ٢٨٠

وقد ابقى الاميرَ حيدر اللمعي قائمقاماً على النصارى واقام مكان الامير احمد ارسلان اخاه الامير امين ارسلان

وقدسنَّ نظامه المشهور المعروف «بنظام شكيب افندي» وأساسهُ تضييع ما بقي من استقلال لبنان ووحدة حكومته ورابطة قومهِ بان ضيق سلطة القائمقامين كل التضييق وجعلهما في اكثر الامور الاساسية تحت سلطة باشا صيدا ، ووسع من جهة اخرى شقة الخلاف بين الدروز والنصارى وشطرهما في كل امورهما شطرين ، كل شيء فيهما للدين . وقد فطن الكثيرون من اللبنانيين الى ما في ذلك النظام من الحيف وتقويض دعائم الاستقلال فاحتجوا عليه لدى الدول ، وقد أيدهم البرلمان الافرنسي في احتجاجهم كل التأييد في جلسات متعدّدة . ولاسباب لا محل لذكرها لم تجد فرنسا بين الدول من يشدّ ازرها وازرهم في الامر فكانت النتيجة أن عُمل بنظام شكيب افندي فزاد به تفكيك الوحدة اللبنانية .

الفصل الثاني

حوادث لبنان في البرلمان الفرنساوي

جلسة ١٥ حزيران سنة ١٨٤٦ . جلسة ١٦ حزيران سنة ١٨٤٦

جلسة ٣ تموز سنة ١٨٤٧

بلغ مسامع فرنسا ماحلّ بلبنان من الكوارث والمصائب فاهتزّت مجالسها النيابية لهول ما سمعت ولم يخفَ على المفكّرين الاحرار من اعضائها ان اوربا عامة وفرنسا خاصة مسؤولة نوعاً عما دهى الجبل من الفواجع والمحن لتلاعب الايدي بلبنان واميره واهليه بمناسبة الحملة المصرية على سوريا سواءٌ في عهد الفتح سنة ١٨٣١ او في عهد الانسحاب سنة ١٨٤٠ : ففي كلا العهدين دُعيَ اللبنانيون الى القتال

على ان يكون ثمنُ ما يريقون من الدماء نيلَ الحرية المطلقة..
فبادروا اليه مستبسلين وحاربوا في العهدين حربَ الاسود
حتى شهدت المقامات الرسمية ان انضمام اللبنانيين الى
ابرهيم باشا ضمن لهُ تدويخ سوريا كما ان خروجهم عليه
اضطره الى الجلاء عنها.. وبالرغم من ذلك لم ينل
اللبنانيون ثمن ضحاياهم بل تخلت عنهم اوربا ولم تدفع الضيمَ
عنهم فرنسا . واصبحوا بعد ان أنهكتهم تلك الحروب
مقطعي الاوصال مشتتي القوى ولقمة سائغة للاعداء .

فاغتنمت تركيا الفرصة، فعمدت الى تفكيك عرى
« القومية اللبنانية » وبذر بذور التعصب الديني في الصدور.
وقد نجحت سياستها فكان ما كان في لبنان من فتن ومحن
من سنة ١٨٤١ الى سنة ١٨٦٠ حتى تم ما خشي منه المسيو
ملفيل في مجلس نواب فرنسا حين قال لهم : ان جلّ ما
ابغيه هو ان لا تجعلوا لبنان كبولونيا ..

علمت اوربا بما حدث في لبنان وشعرت بمسؤليتها نحوه
فاهتمت صحافتها ومجالس نوابها بالامر، وكان اشدُّ

ذلك الاهتمام في فرنسا لما بين الشعبين من المحبة المتبادلة والعلاقات القديمة ، فقام الخطباء في مجلس النواب يذكرون فرنسا بما للبنانيين من الحسنات والافضال منذ ايام لويس التاسع الى عهد بونابرت ويستحثون الحكومة على بذل المعونة للبنان مبادلة لصنيع اللبنانيين :

ولا بأس بالتبسط قليلا فيما حصل يومئذٍ في البرلمان الافرنسي من هذا القبيل

جلسة ١٥ حزيران سنة ١٨٤٦ ، دي ملفيل

في تلك الجلسة خطب المسيو دي ملفيل ولامَ وزيرَ الخارجية على عدم سعيه الى اعادة امارة الجبل الى ما كانت عليه من الاستقلال تحقيقاً لوعد اوربا للبنانيين سنة ١٨٤١ ، واستحلف الوزارة ان تقوم بوعودها للبنان ولا تسمح ان يكون مصيره كبولونيا ، قال النائب : « اننا كثيراً يا حضرة النواب ما نرمي هذه الشعوب بعدم التمدن والخديعة والغش لكنها اذا تعلمت يوماً ان تكتب التاريخ فانها تجد مجالاً واسعاً

للكلام .. لانه في ذلك العهد جاءها اناسٌ اثاروها بوعدهم لها حفظ ضماناتها وامتيازاتها بل توسيع دائرتها » .. وهنا سرَدَ النائبُ من الحوادث ما يُثبت انه لم يُبرَّ بالوعد. ثم قال:

« ان اهالي جبل لبنان المسيحيين الذين حفظتهم العناية الربانية فيه .. لم يكونوا قط تحت حكم الباب العالي مباشرة ولم يكن له عليهم الا سيادة اسمية . »

وقد تبسط النائب في هذا الموضوع وأتى على ملخص تاريخ الحوادث التي وقعت في لبنان منذ سنة ١٨٤٠ فأثبت ان الدسائس كانت السبب في وقوعها ، لا تعصب الاهلين . وختم خطابه بقوله للوزير: « كان اصحابكم يقولون بالامس يجب ان نجعل في الشرق بلداً يشبه سويسرا ، وانا اسألكم ان لا تجعلوه يشبه بولونيا . »[1]

---

١ كانت بولونيا منذ الجيل التاسع مملكة مستقلة وظلت كذلك الى سنة ١٧٦٤ فتدخلت في امورها الامبراطورة الروسية كاترين . ومنذ ذاك الحين أخذت الدسائس تنخر عظام بولونيا وتثير فيها عواطف التعصب الديني والمذهبي حتى انقسمت الامة على بعضها : فاستنجد الارثوذكس بالامبراطورة كاترين واستغاث البروتستانت بملكة النمسا ماري تريز وبملك بروسيا فردريك الثاني . وما زالت تلك الحكومات الثلاث تتجاذب الطوائف والاحزاب البولونية حتى

جلسة ١٦ حزيران سنة ١٨٤٦ : لامرتين

خطب في تلك الجلسة المسيو دي لامرتين المشهور خطاباً مطولاً بسط فيه المسئلة اللبنانية من سنة ١٨٤٢ فذكر حقائق عرفها شخصياً اثناء رحلته الى لبنان سنة ١٨٣٢ وشهد باتحاد اللبنانيين من دروز ونصارى كما انه صرّح رسمياً ان فرنسا مسؤولة عن نكبة الامير بشير وعن زعزعة استقلال لبنان ... قال :

« عليّ ان اصلح الهفوة التي بدرت امس من حضرة المسيو دي ملفيل فقد قال بوجود خلافات واحقاد قديمة بين شعوب لبنان في حين ان لاشيء من ذلك . وجلّ ما بين الموارنة والدروز خلاف في العقيدة .. فالموارنة مسيحيون

تقطعت اوصال الامة وانقرط عقد وحدتها فأدى ذلك الى تقسيمها بين روسيا والنمسا وبروسيا . فأصبح تاريخ بولونيا منذ ذاك الحين سلسلة قلاقل داخلية ومنازعات دامية بين الشعب البولوني وتلك الحكومات حتى جاءت هذه الحرب ، وكان قد عرف البولونيون علة مصائبهم فاتفقوا واتحدوا على مبدأ يحفظ كيان أمتهم واستقلالها وقاموا اليوم يطالبون بحقوقهم فاخذ الحلفاء بيدهم ، وستنال بولونيا استقلالها بفضل اتحادها وحياة القومية في اهلها على اختلاف طوائفهم وتباين نزعاتهم ...

كاثوليك ، وسبق لي ان قلتُ في هذا المجلس ان العقيدة الاساسية في مذهب الدروز هي حفظهُ سراً في قلوبهم . ولهذا كانوا متحدين مع الموارنة في عهد الامير بشير .

« والامير بشير لم يرتكب سوى خطأ واحد دفعته اليه سياستنا وهو انه مال حيناً الى ابراهيم باشا فأغضب البابَ العالي ، ولما اضطر ابرهيم باشا الى مغادرة سوريا ، فأول عملٍ أتتهُ الحكومة المنتصرة ان اسقطت سلطة الامير بشير .. »

ثم تطرق الخطيبُ الى ذكر حقوق لبنان والى الحالة التي يجب الرجوع اليها في طريقة الحكم فيه قال: « وما هي هذه الحالة القديمة العهد الثابتة من مئتي سنة والمعترف بها من جميع الدول ؟ هي وحدة السلطة والامارة في يد الامير بشير .. »

« لست بحاجة الى ان أُعيد على ذكراكم كم هذه القضية حرية بعنايتنا ومزيد اهتمامنا . ولا اقول شيئاً عن عواطفي الخاصة اتقاء ان أُتهم بأني أريد ان أُخضع سياسة بلادي لها ، انما طالعوا اقوال قولنه الذي قضى سنتين بين الموارنة

الفشيطين المنكودي الحظ فيمثل لكم اسمى الفضائل التي كانت تجمل المسيحيين الاولين مجسمة في شخص أجمل طائفة وأنبلها وأجرأها ، ويريكم الشعب الماروني كأبدع امة في الشرق يمكن ان تلقح بها شجرة الامة المسيحية . فاذا تركتموها تهلك اوتباد فاصرّح لكم اني اعدّ ذلك كآخر نقطة من ثفالة كأس شربناها سنة ١٨٤٠ وكان عليكم اقلهُ ان تبذلوا الجهد لئلاّ تتحوّل هذه الثفالة الى نقطة دم . اما انا فاني أتهم الحكومة الفرنسوية ليس فقط بضعف بصيرتها في المسألة الشرقية العظمى منذ سنة ١٨٣٦ بل بقلة الشهامة والحزم ، ولا يوجد رجل فطن منزّه عن كل غاية الا ويشاطرني رأيي .

«لماذا عاكستُ الحكومة في اول اذار؟ لاني تيقنتُ بعد البحث الدقيق ان السياسة الفرنسوية ارتكبت غلطاً عظيماً بتوجيه كل عنايتها الى مصر واهمالها السكان الذين توجب علينا وحدة الايمان وحماية متقادمة العهد ان نعضدهم بكل قوى سياستنا فلا نتركهم عرضةً للاعتداء البربري وللسلب والنهب.

لاي سبب بعد سقوط الوزارة المذكورة في اول اذار عضدت باقتراحي الوزارة الجديدة في بدء عهدها؟ لاني كنت اعتبر ان الوطنية الحقة تقضي عليّ بتأييدها لانهاض سياستنا من كبوتها في المسألة الشرقية، وبان لا اسمح على قدر طاقتي بتعريض امة محبوبة من فرنسا منذ عهد القديس لويس حتى لويس الرابع عشر الى الفناء من جرّاء جهل الوزارة او ضعفها. بيدَ انه قد سقط من كنت اريد انهاضه وتزعزع ما قصدت توطيده اذ أنّ نتائج السياسة التي انتهجتها حكومتنا اوصلتنا الى حالة اوشك المسيحيون في الشرق ان ينسوا ماقد بذلته فرنسا في سبيل نفعهم. ومع ذلك قد سمعتم امس واول من امس حضرة وزير الخارجية يسألنا السكوت عن مسألة سوريا. وكل مرة عرضت علينا مسألة خطيرة مثل هذه طلبوا منا الصمت. وقد طلبوه منا امس واليوم عن الموارنة الباسلين ولا ذنب لهم الاّ لكونهم وضعوا آمالهم فيكم ونادوا باسمكم مستغيثين ومدّوا اذرعتهم الى فرنسا متوسلين. فهذا هو الشعب الذي سُئلتم اليوم

السكوت عن امره . اما تعلمون ماذا يحدث ؟ سيأتي يوم فيه يقولون لكم : لم يبقَ ثَمَّ مسألة سوريا ولا مشاكل ولامنازعات . اجل انه لا يبقى مسألة ، اذ يكون الشعب الماروني قد ادركه الفناء !

«علينا ان نرفض كم افواهنا وعلى فرنسا ان ترفع صوتها بقدر ما تخفضهُ حكومتها ولتعلن على رؤوس الاشهاد انها لا تتسامح في اي مكان كان في الاحترام الواجب لاسمها ولا تترك اصدقاءها والموارنة في جملتهم ، ولتجهر بأعلى صوتها بما تقدَّم حتى اذا هلكت هذه الامة المنكودة الحظ يوماً ما فالتبعة تقع على عاتق من يعنيه الامر ، ولتسقط آخر نقطة من دمها ليس على فرنسا بل على حكومتها ! . »[1]

على اثر تلك المناقشة وعدت الوزارة بالاهتمام بمسألة لبنان والمحافظة على حقوقه . وكان فصل العطلة البرلمانية قد أزف فارفضَّ المجلس . وما عاد الى الالتئام حتى رجع الى المناقشة في المسألة اللبنانية :

---

١ حرفياً عن المحررات ج ١ ص ٢٦٨ وعن بوجاد ص ٢٧٩

وفي تلك الاثناء كانت المشادّة قد بلغت اقصاها بين اللبنانيين والباب العالي فيما خصّ اعادة الامارة اللبنانية الى سابق استقلالها ووحدة سلطتها واللبنانيون يعللون النفس عبثاً بمساعدة خارجية فعلية تنيلهم حقوقهم ، ولما طال على تعللهم الزمان رفعوا الى البرلمان الافرنسي عريضة تلاها على المجلس الكونت دي كاتر بارب في جلسة ٦ ك ٢ سنة ١٨٤٧ جاء فيها : « اجيبونا صريحاً وبجلاء اذا كان يمكننا ان ننتظر منكم مساعدة عاجلة او تتخلون عنا فنعلم اذ ذاك كيف يجب ان نتدبّر فلا نستسلم الى الآمال الفارغة .. »

جلسة ٣ تموز سنة ١٨٤٧ : كاتربرب ، ملفيل ، كريميو

لم تقتصر المطالبة بحقوق البلاد على فريق من اللبنانيين دون فريق بل اشتركوا فيها على اختلاف مذاهبهم فارسل المسيحيون والدروز عرائض الى البرلمان الافرنسي في صيف سنة ١٨٤٧ والجميع متفقون على الطلب ذاته : « اعادة الامارة اللبنانية الى ما كانت عليه مع حق التوارث فيها .. »

وقد عرضت هذه العرائض على المجلس الافرنسي في جلسة ٣ تموز سنة ١٨٤٧ [1] فأيد الكونت دي كاتر بارب طلب اللبنانيين كل التأييد وقال للمجلس : « ياحضرات النواب ، لا يوجد لهذه الحالة سوى علاج واحد هو اعادة امارة لبنان الى ما كانت عليه مع دفعها للباب العالي الجزية واعترافها بسيادته الرسمية وخلا هذه القاعدة لا تقوى اية حماية كانت على توطيد اركان الراحة .. »

وكان قد زهق اهل لبنان يومئذٍ من كثرة الوعود وقلة الاعمال فارسلوا في ذلك الرسائل الى النواب الذين كانوا مستعدين لتأييدهم ، منها خطاب قرأ بعضه الكونت دي كاتر بارب في تلك الجلسة ذاتها (٣ تموز سنة ١٨٤٧) جاء فيه : « نعم انكم لم تفتروا حتى الآن عن السعي في سبيل انقاذ امتنا فلا حاجة اذاً الى تحريضكم على مواصلة مساعيكم اذ من يقدم على احداث بناء يتوجب عليه اتمامه حتى اذا لم يُنجزه يستهدف للسخرية وهزء الناس . »

---

١ المحررات ص ٢٧٤ عد ١٣٦

وقد علق النائب على هذه الفقرة بقوله: «ان هذه العبارة ليست موجهة الي لانني لستُ هنا سوى صدى ضعيف اردّد مصائب شعب جدير بكل اعجاب.. كلاّ فما كنتم لترتضون بابادة هذا الشعب .. وقد بقي وحدَهُ مدة ٨ قرون مستقلاً حرًّا في وسط السلطنة العثمانية ..»[1]

وقام بعد الكونت دي كاتر بارب حضرة النائب المسيو دي ملفيل ولفتَ انظار النواب الى اختلاف سياسة المجلس عن سياسة الحكومة: فالمجلس يشدّد باعادة الامارة اللبنانية حسب طلب اللبنانيين، والوزارة تتهاون وقد لاَمَ الوزارة كل اللوم على عدم اتباعها رغبة المجلس.. ثم أتى على تاريخ حوادث لبنان من سنة ١٨٤١ وشرح كيف ان الباب العالي يسعى الى غايةٍ وضعها نصبَ عينيه وهي هدم استقلال لبنان متذرعاً الى بلوغها بكل الوسائل قال: «اني اذكر المجلس بانه بُدئَ اولاً بقسمة امارة لبنان المطلقة الحكم الى قائمقاميتين ثم ظهر ان قسمة السلطة هذه تجعل المسيحيين المقيمين في

---

١ المحررات ص ٢٧٦ عدد ١٣٧

القرى المختلطة وهم الاغلبية، تحت حكم والٍ تركي وانه يخشى من تجديد جميع الرزايا التي تأسفنا لحدوثها ..

« واذ ذاك استنبطت طريقة انتخاب وكيلين احدهما درزي والآخر ماروني لموازنة سلطة القائمقاميتين الواسعة، فهذا التنظيم لم يأتِ بنتيجة وجاءت كوارث سنة ١٨٤٥ مصداقاً لقولنا ..

« ثم افتكر فيما بعد بانشاء ديوانين مؤلفين من العناصر المختلفة ووضعهما تحت رئاسة السلطة التركية، فخبطت جميع هذه التنظيمات لان غايتها جميعها كانت ترمي الى بسط السلطة التركية على لبنان .. »

وقد خطب بعده المسيو كريميو النائب الاسرائيلي فاظهر للمجلس واجب فرنسا نحو اللبنانيين ليس من قبيل الدين فقط بل نظراً للخدمات الجليلة التي قام بها اللبنانيون لمساعدة الافرنسيين من قديم الزمان قال : « اتسكتون والامر متعلق بمسيحي لبنان ؟ ومن هم هؤلاء المسيحيون ؟ هم اخوانكم منذ قرون ليس في المذهب فقط بل في السلاح وفي ساحات القتال

فقد وجدتموهم في كل الظروف .. فالقديس لويس وجدهم من قبل ونابليون كذلك .. »

فأبدى المجلس استحسانه وصرّحت الوزارة بعد تلك المناقشة باستعدادها التام للاهتمام بالمسألة اللبنانية جدَّ الاهتمام.

. . . .

يُثبت ما تقدم باختصار :

ان استقلال لبنان الداخلي كان ثابتاً تاريخياً قبل سنة ١٨٤٠ بأجيال

أنَّ الباب العالي لم يكن له في لبنان ، بشهادة مجالس النواب والحكومات الاوربية ، الاّ السيادة الاسمية فقط

أنَّ البرلمان الافرنسي كان يشدّد على حكومته بوجوب مساعدة اللبنانيين على اعادة « امارتهم المستقلة » لا لمنفعة تنالها فرنسا من وراء تلك المساعدة بل قضاءً لواجب عليها نحو اللبنانيين « وهم اخوان ليس في المذهب فقط بل في السلاح من عهد لويس التاسع .. »

انه ما خطر يومئذٍ على بال اللبنانيين ، رغم ما حلّ

بهم من المصائب المتتابعة ، ان يتنازلوا عن شعرةٍ من حقوقهم بل كان صراخهم وسعيهم وتضامنهم مقصوراً على التشبث باستقلالهم واعادة امارتهم الى ما كانت عليه من الوحدة والمنعة ، ولم يجلْ في خاطرهم قط ان طلبهم عونَ دولةٍ يقضي عليهم بالتنازل لها عن استقلال البلاد او عن شيء منه بل كانوا يعتقدون ان تلك الدولة اكبر وانبل من ان تكلفهم تلك المساومة فتجعل مساعدتها واسطةً للحصول على منفعة في لبنان ، بل يرون انها اذا بذلت لهم ما تستطيعه من المعونة يكون ذلك مبادلةً منها للمساعدات العديدة التي قام بها اللبنانيون جهدَهم في كل فرصة سنحت لهم من قديم الزمان...

.....

.....

الفصل الثالث

الامير بشير احمد اللمعي (سنة ١٨٥٤ ـ ١٧ ت ٢ سنة ١٨٦٠)

ثورة الاهالي في كسروان سنة ١٨٥٨ .

تعيين الامير محمد ارسلان مكان ابيه المتوفي الامير امين.

حركة سنة ١٨٦٠

لم يأتِ ما بُذل يومئذٍ من المساعي والمجهودات بفائدة وظلَّ شكل القائمقاميتين في حكم لبنان يساعد على تربية روحٍ جديدة في نفوس اللبنانيين ، روح التعصب للدين والمذهب ، لان كل شي في حكومتهم وادارة شؤونهم ، أصبح تابعاً لصفة الشخص الدينية والمذهبية

وقد جاءت وفاةُ الامير حيدر سنة ١٨٥٤ ضغثاً على

ابالة لان خورشيد باشا طلب ان تعين خلفاً له اقل من كان بين الامراء لياقة للحكم وهو الامير بشير احمد ابو اللمع. وغرضهُ من هذا التعيين ان تزيد الفتن ، اعتقاداً منه انه كلما زادت الاضطرابات في لبنان وتفاقمت الشرور كلما اتسعت سلطة الولاة واضمحلّ نفوذ الحكومة الوطنية حتى يضطر اللبنانيون في آخر الامر الى طلب والٍ تركي عليهم.

وقد شهد بذلك المسيو مور قنصل انكلترا العام في بيروت في كتاب ارسله الى المسيو البزون وكيل سفارة انكلترا في الاستانة في قال فيه ٢٨ ك ٢ سنة ١٨٥٦ « .. اما السبب .. في عضد الاتراك للقائمقام فهو السياسة التي انتهجوها ولم يحيدوا عنها قط وقوامها توجيه المساعي الى ابقاء الاضطراب في لبنان للتذرع الى الغاء ادارة حكمهِ الحالية وهم ينهجون مثل هذا النهج في القائمقامية الدرزية .. »[1]

وكتب المسيو مور المذكور في المعنى ذاته الى الكونت ملمسبوري في ٢٧ ايار سنة ١٨٥٨ ما ترجمته :

---

١ المحررات ج ١ عدد ٢٤٤

« اما المقصود من سلوك خورشيد باشا في مسألة لبنان ونياته التي استشفتها هي ذات نيات الحكومة التركية في ان يسود الاضطراب في جبل لبنان على امل ان تتمكن في وسط القلاقل العامة من الغاء نظامات لبنان التي لم تفتر عن النظر اليها بعين الاستياء.. » [1]

وفعلاً حدث يومئذٍ في لبنان لسوء ادارة الامير بشير أحمد وعدم كفاءته ، ما كان يُنتظر وقوعه فبلغت الاضطرابات اشدّها وسنحت الفرصة لراقبيها فاثاروا الحزازات بين المشايخ والاهالي من جهة ، وعواطف التعصب بين الدروز والنصارى من جهة اخرى ، فجرت حوادث كسران على اصحاب الاقطاع سنة ١٨٥٨ ، وتلتها اشدّ هولاً منها حركةُ سنة ١٨٦٠ والمسؤولية في الحادثتين على عمال الدولة ، وغرضهم واحد كما كان سنة ١٨٤١ و سنة ١٨٤٥ ، وهو بسط سلطتهم على لبنان وادغامه في الولايات. والادلة الرسمية على ذلك لا تحصى :

منها ماجاء في كتاب المسيو مور الى السر هنري بولفر

---

١ المحررات ج ١ عد ١٥٨

بتاريخ ٣٠ حزيران سنة ١٨٥٩ عن حركة الاهالي في كسروان ما ترجمته: « يخيل لي ان الحكومة تقصد بسكوتها توسيع دائرة الخلاف بين الشعب ورؤسائه اصحاب الاقطاع.. بل تريد ابقاء جرثومة الهياج حية بحيث تضطر الشعب وزعماءه الى طلب والٍ تركي والانضمام الى الحكومة التركية. »[1]

وفي ٣ ايار سنة ١٨٥٩ توفي الامير امين ارسلان فعين خورشيد باشا مكانه ولده الامير محمد. وقد جعل تعيينه بصفة وقتية حتى يزيد الاضطراب ..[2]

وقد شهد المسيو مور بمسؤولية ولاة سوريا والجنود في حوادث سنة ١٨٦٠ في رسائل عديدة ارسلها الى سفراء انكلترا ووزرائها منها ما كتبه الى السر هنري بولفر في ٣١ ايار سنة ١٨٦٠: « وانتهى اليّ ان الجنود التركية اطلقت

---

١ المحاورات ج ١ عد ٢١٩

٢ تستا: ج ٦ ص ٥٨

النار امس على المسيحيين في الحدث و بعبدا وحرقتهما مع مع وادي شحرور وعاريا و بعض مزارع في الساحل ... ويُقال ان نفراً من الباشبوزق انقضّ على الامير بشير قاسم امير جبل لبنان سابقاً بينا كان خدمه يقودونه الى خارج داره في بعبدا وهو بعمر خمسة وثمانين سنة اعمى البصر .. وقد وُجدت جثتهُ مثختة بضرب السيوف وعنقه مقطوعة .»[1]

ومنها ان اهالي بكفيا لما بلغهم ما حلّ باخوانهم هبوا لنصرتهم فاجتمع اليهم كثيرون من جيرانهم فاحتشدوا في البلدة لا يقلون عن خمسة الاف مقاتل شاكي السلاح فبلغ خبرهم خورشيد باشا فارسل اليهم يطيب خاطرهم ويشير عليهم بالبقاء في بكفيا لانه سيتخذ هو الاحتياطات اللازمة

وفي ذلك يقول المستر مور في كتابهِ الى السر بولفر بتاريخ ١٦ حزيران سنة ١٨٦٠

«اخبرنا (خورشيد باشا) انه سمح للمسيحيين المحتشدين في بكفيا وعددهم خمسة الآف ان يبقوا فيها

---

١ المحروسات ج ٢ عدد ١٨

بسلاحهم وانه سيصدر أمره باعادة السلاح الى من يريد من المسيحيين اللاجئين الى هنا للعودة الى الجبل انضماماً لاخوانهم، وانه سيرسل خمسماية جندي نظامي لنجدة زحلة، وانه أنفذ الاوامر الجازمة الى زعماء دروز لبنان بان لا يبدوا اقل حركة ... »[1] فكانت نتيجة ذلك ان الجنود التي أرسلت الى زحلة هي التي كانت محور الشر ولولاها لما حدث فيها شيء على الاغلب كما يُستنتج من كتاب المستر مور الى السر بولفر في ٢٠ حزيران سنة ١٨٦٠ وفيه يخبره عن حوادث زحلة وعن خبر سقوطها: « ... اما بخصوص سلوك المشير وارباب السلطة التركية واعمالهم فاني اتأسف على ان اقول انه مع شدّة ميلي الى ان أُحسن الظن بهم وانسب اعمالهم الى أفضل النيات فالانباء والظواهر تلقي شديد الريبة في صدق مقاصدهم .... ومن الشائع ان الدروز ارادوا بمهاجمة زحلة نهار الاثنين من جهة الجبل المعسكرة فيها الجنود التركية، اثبات الاعتقاد العام بانهم يعتبرون الجنود الاتراك

---

١ المحررات ج ٢ عد ٤٨

محالفهم ... » [1] وثاني يوم تأكد المستر مور خبر سقوط زحلة فارسل الى السر بولفر كتاباً بتاريخ ٢١ منه جاء فيه: « .. ويقال ان الجنود التركية اشتركت مع الدروز في مهاجمة المسيحيين وقد اكد هذا الخبر اناس يقولون انهم شهود عيان وان قد وصل المدينة خفيةً زهاء ثلاثين جندياً جريحاً.. »

وقد تحقق القناصل ان المسألة ليست بين الدروز والنصارى بل بين الاتراك واللبنانيين وان الدولة تريد ان يتفانى اللبنانيون في حرب اهلية لبلوغ غايتها. وبناءً على هذا الاعتقاد لم يعد القناصل يرجون اقل مساعدة من خورشيد باشا في سبيل تسكين الحال بل كان اعتقادهم بالعكس. وقد شهد بذلك المستر مور في كتابه المذكور انفاً عن سعي القناصل حين بلغهم ان دير القمر مهددة، قال: « وفي الوقت ذاته اشتركتُ مع رصفائي في استنهاض خورشيد باشا لانقاذ

---

١ المحررات ج ٢ عد ٥٨

دير القمر وقد فعلنا ذلك مراعاة للظواهر على غير أمل في نجاح مسعانا ... »[1]

وكان ما خشي منه المستر مور ، فان الحامية التركية في دير القمر فعلت ما فعلته شقيقتها في زحله وفي ذلك يقول المستر مور في كتابه الى السير بولفر في ٢٣ منه « ان الانباء المفصلة التي وردت عليّ عن مذبحة دير القمر تفيد ان الحامية التركية خدعت الاهالي واقنعتهم بتسليم اسلحتهم ... ان النساء التي جاءت بهن البارجة « غانيت » قلن لقائدها « لامبير » ان الجنود التركية اساءت معاملتهن اكثر من الدروز ... »[2]

وقد شهد اللورد دفرين ، وشهادته على تركيا لا تُردّ ، « ان المذابح الاخيرة وكل الحروب الفظيعة والاضطرابات التي دهمت لبنان في الخمس والعشرين سنة الاخيرة كانت

---

١ المحررات ج ٢ عد ٦١

٢ « « ٢ « ٦٢

نتيجة مساعي الحكومة التركية. »[1]

وقد اضطرب احرار النواب في مجالس اوربا لتجدّد تلك الحوادث في لبنان فجرت في مجلس العموم الانجليزي مناقشة في هذا الصدد في جلسة ١٧ آب سنة ١٨٦٠ فلم يخفِ السر شارل نابيير اشمئزازه مما حصل وعطفه على اللبنانيين لان اوربا وعدتهم كثيراً ولم تفِ لهم بشيء من وعودها كما جرى على يده سنة ١٨٤٠ حين كان كومدور العمارة التي ساعدت تركيا على ابرهيم باشا في سوريا. قال حضرته: « قلت في الاجتماع الذي عقد في ادنبورج وكررته فيما بعد على مسامع ندوة العموم اني مخجول من الدور... الذي لعبته في سوريا.. ولم يبق ادنى ريب بان الاتراك بذلوا جهدهم لحمل اهالي لبنان على شق عصا الطاعة على الحكومة المصرية فلم ينجحوا فكلفت اذ ذاك بان اعد اللبنانيين بان الاتراك يحسنون معاملتهم اكثر من المصريين ففعلت وكان ان قام جمهورهم على الحكومة المصرية ولولا مساعدتهم

---

١ دي لاجونكيار ج ١ ص ٦٦٥

لتعذّر على الحكومة نظراً لقلة عدد جنودها اصابة النجاح الذي ادركته . »[1]

وقد بلغت فظاعةُ تلك الفتن وتجدّدها مبلغاً حمل اوربا اخيراً على التدخل في الامر فكانت النتيجة على عكس ما رجته تركيا من عملها : فبدلاً من ان تتمكن من الحاق لبنان بالولايات اضطرت الى موافقة الدول على الاعتراف باستقلاله الداخلي في معاهدة دولية لا قبل لها بالغائها .

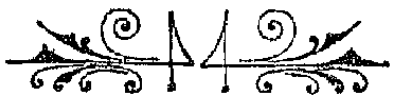

١ المحررات ج ٢ عد ١٧٧

الفصل الرابع

تدخل اوربا في لبنان

اتفاق ٥ ايلول سنة ١٨٦٠

تعيين يوسف بك كرم قائمقاماً على النصارى

لما حدثت فتنة سنة ١٨٦٠ بعد فتن سنة ١٨٤١ وسنة ١٨٤٥ أيقنت اوربا ان لا أمان في لبنان ما زال للدولة امل بالغاء استقلاله وان السبيل الوحيد الى وضع حدّ لتلك الحال هو أن تُعاد الامارة اللبنانية الى ما كانت عليه: يُقام عليها امير وطني تُبنى حكومته على الكفاءة كما كانت الحال في الماضي لا على قاعدة الطوائف التي اوجدها الاتراك بعد سنة ١٨٤١، وان تكفل الدول تلك الامارة وتضمن استقلالها بمعاهدة دولية تقطع آمال تركيا فتهدأ البلاد ويرقى لبنان..

ولقد اتمت الدول نصفَ مهمتها: فكفلت نظام لبنان بمعاهدة دولية الاّ انها لم تُقم عليه اميراً ولا اعطت لبنان حدوداً كافية ولا نزعت القاعدة الطائفية. ولذلك فهي لم تبلغ الا نصف الغاية المنشودة: فهدأت البلاد، الاّ ان الترقي كان ضئيلاً او معدماً ...

وبالنسبة لعلاقة فرنسا بلبنان كما تقدم باشرت الحكومة الافرنسية المخابرة مع الدول بشان التدخل في لبنان فارسل وزير خارجية فرنسا المسيو توفانل بتاريخ ٦ تموز سنة ١٨٦٠ تعليمات بهذا المعنى الى سفراء دولته في لندره وفينا ويطرسبرج وبرلين ليعرضوا على تلك الدول رايَ حكومة الامبراطور بارسال لجنة الى لبنان قوامها مندوبو الدول والباب العالي لدرس الانظمة الواجب وضعها صوناً لحقوق لبنان واحتفاظاً بالامن والنظام في بلاد لا يمكن اقلاق راحتها «دون تعريض السلم في الشرق الى خطر عظيم»[1]

---

١ المحررات ج ٢ ص ١٦٦
الكتاب الازرق الانكليزي في حوادث سوريا سنة ١٨٦٠ وسنة ١٨٦١ عد ٦ ص ٣ و ٤
دي تستا عد ٣٦ ص ٨١ و ٨٣

وكتب المسيو توفائل الى سفيره في الاستانة رسالة بالمعنى والتاريخ ذاتهما يشير عليه بمفاوضة الباب العالي في الامر. وعلى أثر تلك المفاوضة ارسل السلطان عبد المجيد الى الامبراطور نابوليون الثالث رسالة عن قصر طوله بعجه بتاريخ ١٦ منه أكد له فيها عزمهُ على قضاء واجراء العدل في لبنان، ومما جاء فيها قوله: «ولكي لا يبقى ادنى ريب في نيات حكومتي قد شئت ان اعهد بهذه المهمة الخطيرة الى ناظر خارجيتي (فؤاد باشا) المعروفة اراؤه لدى جلالتكم [1]»

وفعلاً ارسل السلطانُ فؤادَ باشا الى سوريا بفرمان يُطلق فيه يدَهُ في مسائل لبنان وسوريا وقد احتفل بتلاوته في بيروت في ١٩ تموز من السنة المذكورة [2]

وبعد مفاوضات طويلة اتفقت الدول ايضاً على شكل تدخلها، وكان ذلك في جلسة عقدها مندوبوها في باريس

---

١ المحررات ج ٢ ص ١٦٨ . دي تستا عد ٣٧ ص ٨٣ ـ ٨٤ وعد ١٢ ص ١٠ وعد ٣٤ ص ٢٢

٢ المحررات ج ٢ ص ١٧٣ . الكتاب الازرق عد ٦٥ ملحق ٢ ص ٤٣ ـ ٤٤ ودي تستا عد ٤٤ ص ١٩٠

بتاريخ ٣ آب سنة ١٨٦٠ ذكروا في محضرها اتفاقهم: وأهمّ ما فيها ان فرنسا ترسل نصف الحملة العسكرية المتفق عليها وان احتلال الجنود الاوربية لا يزيد على ستة اشهر.

وحتى لا تقوم ريبة في النفوس في مقاصد احدى الدول من التدخل في شؤون لبنان اعلن معتمدوها في الوقت ذاته «تجردهم عن كل غرض وصرّحوا بصورة علنية قاطعة بان الدول المتعاقدة لا ينوين ان يطمحن ولن يطمحن ابداً في اثناء اجرائهنّ عهودهنّ الى الاستيلاء على بعض اراض او اكتساب نفوذ خاصّ...»[1]

وعلى هذا الاساس سافرت الحملة الافرنسية الى لبنان وقوامها الالاي الخامس بامرة الكولونيل كوبر والالاي الثالث عشر بامرة الكولونيل داريكو والسرية الاولى من فيلق الفرسان الاول بقيادة اليوز باشي ستوكلي وعلى هذه الحملة المركيز دي بوفور قائدٌ عامّ فبلغت بيروت في ١٦ آب.[2]

---

١ المحررات ج ٢ ص ٢٤٢ ودي تستا عد ٤٢

٢ المحررات ج ٢ ص ٢٥١ وص ٢٨١

ولم تلبث ان تبعتها اللجنة الدولية فاجتمعت لاول مرة في بيروت في ٥ ت ١ سنة ١٨٦٠ وهي مؤلفة من المسيو وكبكر عن النمسا، والمسيو بكلار عن فرنسا، واللورد دوفرين عن بريطانيا العظمى، والمسيو رهفوس عن بروسيا، والمسيو نوفيكوف عن الروسيا، وكان فؤاد باشا يمثل الحكومة التركية [١]

وفي تلك الاثناء اصدر فؤاد باشا امراً بتعيين يوسف بك كرم قائمقاماً على النصارى عوضاً عن الامير بشير احمد اللمعي، تاريخه ١٧ ت ٢ سنة ١٨٦٠ ووجه اليه رتبة قبوجي باشي [٢]

وقد سار فؤاد باشا في لبنان على سياسة تخالف وعود الباب العالي وتعهداته وتزيد في حرج الحال، فهو بدلاً من

---

١ المحررات ج ٢ ص ٣٦٢

٢ المحررات ج ٣ عد ٢٤

ان يُنزل العقاب الصارم بعمال الدولة مثيري الفتن ومسبيبها ويعمل على تضميد جراح الاهالي ، أخذ يسعى الى تبرئة ساحة اولئك العمال الجناة ويستعيض عنهم ببعض من الاهالي فيصدر عليهم الاحكام الشديدة فيزيد بذلك تنافر القلوب وحفيظة النفوس ، فاستنتج «المندوبون» من هذه الاعمال ان في الامر خداعاً من الباب العالي فهو يعلن شيئاً ويسرّ شيئاً آخر. وقد شهد بذلك اللورد دفرين في رسالة له الى سفير انكلترا في الاستانة جاء فيها ما ترجمته: «انّ لدي من المعلومات ما يثبت ان الباب العالي يرسل الى فؤاد باشا تعليمات تخالف الخطة التي كان تعهد باتباعها ، فان حكومة الاستانة هي التي اوحت اليه تبرئة خورشيد باشا وسائر الاتراك في مقابل قتل ٣٠ شيخاً من الدروز[١]»

اما اللجنة الدولية فقد عقدت جلساتها في بيروت من ٥ ت ١ سنة ١٨٦٠ الى ٥ ايار سنة ١٨٦١ ، فاضاعت معظم تلك الجلسات في البحث في منشأ الفتن واسبابها وفي تقدير

---

١ دي لاجونكيار ج ١ ص ٦٦٦

الخسائر التي ألمت بالاهالي ، ولم تصل الى الغرض الجوهري وهو سن نظام جديد للبنان يكفل له اعادة امارته المستقلة وتوحيد الحكومة وتوسيع الحدود الاّ وقد سئم المفوضون الجدل حتى اصبحوا وهم يتوقون الى الانتهاء على اي وجه كان ، لاسيما وجوّ السياسة آنئذٍ مكفهرّ متلبد فما يريده الواحد يأباه الآخر ، حتى أنتج سأمهم واختلافُ نزعاتهم بضعة مواد سموها نظام لبنان الاساسي .

وقد أُرسلت هذه المواد الى الاستانة لعرضها على السفراء والباب العالي .. فشكّل السفراء ومفوضُ الباب العالي مجلساً لاعادة النظر في النظام ، مؤلفاً من عالي باشا عن تركيا ، والسر هنري بولفر عن انكلترا ، والمسيو لافالت عن فرنسا ، وبروكش اوستين عن النمسا ، وجولتز عن بروسيا ، ولوبانوف عن روسيا .

وبعد مباحثات طويلة ، عادت كل دولة الى الرأي الذي كانت دافعت عنه بواسطة مندوبها في لجنة بيروت ، وتوفقوا اخيراً الى الاتفاق على نظام لبنان الاساسي الاول

في ٩ حزيران سنة ١٨٦١ .

ولم يكد ذلك النظام يوضع موضع التنفيذ حتى ظهرت عيوبه وثبت نقصه مما اضطر الدول الى النظر فيه سنة ١٨٦٤ فكان من ثم نظام لبنان الاساسي الحالي وهو لا يفضل سابقه كثيراً ، الاّ انهُ اقل تعقيداً واكثر مرونةً : ساعد على الراحة في لبنان لكنه لم يتمكن من ترقيتهِ سياسياً واقتصادياً

ولم يخفَ على اللبنانيين ما في ذلك النظام من النقص والحيف فاحتجوا عليه منذ اعلانهِ. ولئن قضت السياسة الدولية فيما مضى بعدم تلبية اللبنانيين الى كل مطالبهم فلا شك في ان مؤتمر الصلح يعيرهم التفاته وينفي عنهم ظلماً حملوه دهراً طويلاً وهم صابرون عليه آملين ببارقةٍ ما زالت تلمع امام عيونهم في الافق البعيد وهي تقترب منهم شيئاً فشيئاً حتى باتوا وهم يرونها اليوم في يد قادة العالم المتمدن مشعلاً وضاءً يطلون بهِ من قمة جبل العدل فينيرون ظلمات الشعوب الضعيفة ويحيون ميت آمال الامم المغلوبة على امرها ، فينال لبنان حقه من الاستقلال ثمناً لدماءٍ غزيرة أراقها اللبنانيون على

ممرّ الاجيال. وكأنّ ارواح اولئك الشهداء لا تزال ترف في سماء ارزه الخالد تملأ الفضاء هيبةً واسراراً تهيب بابناء اليوم ان يصونوا إرثاً مقدساً تركه الجدودُ وديعةً وامانةً بين ايديهم فليس لهم ان يضيعوه في ساعة اضطراب عصبي، بل عليهم ان يحتفظوا به فيخلفوه للابناء والاحفاد: انما الاحتفاظ بحقٍ موجود أسهلُ وأسلمُ من السعي الى استرجاع ذلك الحقِ بعد فقدانه ...

.....

انتهى القسم الاول